
أسطورة
الفصيلة السادسة
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

من جديد يعود د. (رفعت إسماعيل) مضيفكم الدائم للكلام .. ومن جديد هى ليلة من ليالى الصيف التى يخنقك الحر فيها ، فتضغط على مفتاح جهاز التكييف فقط لتتذكر أنه ليس عندك واحد .. تفكر فى فتح باب الشرفة لكنك تهاب تلك الحشرات (الكيتينية) الغامضة التى تدخل من الظلام ، وتملأ المكان صخبا وضوضاء ، فلا تموت إلا بالشبشب البلاستيكى الأحمر .. وأنت - مرة أخرى - لا تملك واحدا !

عندها تعد لنفسك كوبا كبيرا من المياه الغازية الباردة ، وتجلس إلى المكتب لتحكى حكاية أخرى ، فقط تحاول قدر الإمكان ألا يلوث العرق الورقة التى تكتب عليها ، فهذا يزيد الحياة تعقيدا

هل تعرفون ليالى الصيف هذه ؟

حسن .. يمكننا أن نبدأ مباشرة .

مازلنا - إذن - فى (رومانيا) .. وقد انتهت قصة الشاحبين ودماء (دراكيولا) وتحدثنا كثيرا عن

جانب النجوم المثقوب وعن (لوسيفر) وقرية (هتماجيو) التى تحولت إلى قريتين ...

الآن دعونا نترك الفصيلة السادسة .. لماذا هى فصيلة ، ولماذا هى سادسة ؟ أعتقد أن اسم (أسطورة الفرقة العاشرة) له رنين أجمل وأكثر تشويقًا .. لكنى مضطر لاستعمال هذا الاسم السخيف لأن حكايتنا اليوم تتحدث عن - تصوروا هذا - فصيلة سادسة ! ما هو الموضوع بالضبط ؟

قربوا رءوسكم منى حتى لا أضطر إلى الصياح فى هذه الساعة المتأخرة من اليوم .. وأصغوا لحكايتى ..

* * *

١ - المستشفى وما إلى ذلك ..

لقد تحسن (جوستاف) كثيرًا ..

صحيح أنه فقد بضعة كيلوجرامات من وزنه ، وازداد الصلع فى مقدمة رأسه .. لكنه لم يعد ذلك الأبله الذى عدت به من (هتماجيو) بعد قصتى الرهيبة هناك ..

وفى الأسبوع التالى كنت أزوره يوميًا فى المستشفى الذى يقيم به .. على سبيل الاستجمام ؛ فأشترى زهورًا من شارع (كونستنتين زاحاتو) وأدخل لأجده فى غرفته .. جالسًا فى الشرفة يتأمل الفراغ فى شرود فلسفى محبب للنفس .

وبالطبع لم أحاول قط أن أحدثه عن (جانب النجوم) وعما رآه هناك .. إننى أحترق شوقًا لمعرفة ما كان ؛ لكن من عادات الناس السخيفة أنهم يجنون ويصابون بالخبال قبل أن يجيبوا على الأسئلة المهمة ..

إلى أن كان ذلك اليوم

* * *

سألنى (جوستاف) وهو ينسق زهورى فى مزهرية :

ـ « هل ضايقتك الشرطة كثيرا ؟ »

ـ ليس كثيرا جدا .. إن نفوذك لقوى حقا .. ثم إن الصيدلى تعاون معى على تلفيق قصة عن نصاب يبشر بدين غامض ، وقد نجح فى جعل أتباعه ينتحرون بالديناميت .. »

ـ « وابتلعوا القصة ؟ »

ـ ليست رديئة كما ترى .. لكنهم حظروا علينا نشرها لأسباب تتعلق بأمن الدولة .. »

ابتسم فى مرارة واسترخى فى مقعده :

ـ هذه هى مشكلة الصحفى فى دولة شمولية : كل شىء محظور نشره ما لم يسمح له بذلك كتابيا .. والخلاصة هى أننا أضعنا وقتا لا بأس به فى (هالماجيو) ولم نظفر بشىء .. »

ـ ابتسمت وصببت لنفسى بعض الماء البارد .. وقلت :

ـ « لقد منعنا (هو) الذى يمشى فى الظلال من دخول عالمنا .. وهو إنجاز لا بأس به بالنسبة لرجلين فى حالتنا الصحية .. »

ثم جرعت الماء ، وقلت :

ـ « الحق أقول لك : إننى أشعر أن جولتنا مع (جانب النجوم) لم تنته بعد .. أعتقد أننى سأعود إليه يوما ما ..

لم أكن أريد التلفظ بشىء عن (جانب النجوم) لكن لسانى خاننى .. ولحسن الحظ لم يبدأ (جوستاف) فى الصراخ والبكاء كالأطفال .. كان هذا سيضعنى فى موقف لا أحسد عليه ..

قال كأنما لم يسمعنى :

ـ « يمكنك أن تفعل أى شىء ما دام هذا بعيدا عنى .. »

وساد الصمت برهة .. قال بعدها :

ـ « (رفعت) .. أنا بحاجة إليك فى موضوع آخر .. »

ـ « موضوع مرعب آخر ؟ »

ـ « وصالح للنشر ! »

قلت وأنا أدير الكوب البارد بين راحتى :

ـ « ألم تتعظ بعد ؟ »

ـ « بلى تعلمت أن أبتعد عن الصيادلة المرتابين .. إن موضوعنا القادم لن يكون سيئا إلى هذا الحد .. كم بقى من إجازتك ؟ »

- حوالى أسبوعين ... »

التمعت عيناه حماسا ، ومد أنامله يفك أول زر من منامته ، استعدادا لارتداء ثيابه العادية :

- « إذن هيا بنا .. دعنا لا نضيع وقتا أكثر .. »

- « وهل لديك فكرة عن نقطة البدء ؟ »

- « سنتفق على كل شيء .. كل شيء .. »

* * *

ولهذا تجدونني جالسا في ذلك المقهى في (بوخارست) مع (جوستاف) نتصفح الأوراق التي بين يديه ..

قال لي وهو يبعد الأوراق قليلا ليراها أفضل :

- « نحن لم نحقق الكثير في (هتماجيو) .. لذا أنا مصر على الاستفادة من وجودك ها هنا قدر الإمكان .. كل ما أريده قصة .. قصة صغيرة أنشرها في مجلتي ، مسلسلة على ثماني حلقات أو أكثر .. مع عناوين مثيرة على غرار (سليل الفراعنة يهزم الـ ..) .. لا أدري يهزم ماذا بالضبط .. لكنك ستسحقه سحقا .. آه ! أين هذه القهوة اللعينة ؟ هيه ! هل ترى ؟ لقد نسينا موضوع تابوت العهد هذا تماما .. ما رأيك فيه ؟ »

هززت رأسي وأنا أتأمل النادلة :

- « قلت لك إنني لن أتدخل في أية قصة لها رائحة عبرانية ..

إن تابوت العهد موضوع محبب لليهود ، لكني لا أهتم به .. »

- « وما رأيك في فرقة النازيين المتجولة هذه ؟ »

هنا بدا على الاهتمام .. لا أدري كيف أبدو حين أهتم ، لكني بالتأكيد أكون مقنعا .. لقد نزعت عويناتي في حركة تمثيلية وسألته :

- « هلا ذكرتني بهذه القصة ؟ »

قال وهو يتفقد الورقة بعينيه :

- « لدينا فرقة أشباح نازية تجول بين القرى .. ثمة تقارير من (ترجول نيامتزولي) في (مولدافيا) .. وتقارير من (نيامونتزو) ومن (بياترا) .. الحق أن الأمر أكبر من أن يكون هلاوس فلاحين .. »

تملكت قشعريرة زحفت عبر عمودي الفقري ..

إن النازيين مرعبون بما يكفي أحياء .. فكيف حال أشباحهم ؟

لكن - كالعادة - تحرك الفضول القاتل لدي .. الفضول الذي قتل قططا كثيرة من قبل ..

هناك لغز من ألغاز ما وراء الطبيعة ينتظرني ، ولايحتاج مني إلا إلى بعض الشجاعة .. بعض الشجاعة يا (رفعت) وليس الشجاعة كلها ، ومن أدراني أن هناك قصة مرعبة تنتظرني هناك ؟ كالعادة يظل احتمال الهراء قائما ..

إن عاملا مهما بدأ يحركني في هذه الأيام : الكبرياء المهني .. كبرياء الخبراء .. إن الجميع يصغون لي باهتمام ، ويعتبرونني خبيرا في هذه الأمور .. لقد واجهت ما يقرب من ثلاثين لغزا مهما ، وصرت حجة إلى حد ما ..

كبرياء الخبراء تمنعني من أن أرفض .. تمنعني من أن أقول لا ، وأظل جاهلا للأبد .. إنه كبرياء السباك الذي يسمع عن نوع جديد من الصنابير .. كبرياء الإرهابي الذي يحب تجربة كل أنواع المفرقعات .. كبرياء ميكانيكي السيارات العجوز حين يسمع عن (الرذاذ) الإليكتروني لأول مرة في حياته ..

لهذا نظرت إلى (جوستاف) مليا ، ثم بصوت مبحوح سألته :

ـ « حسن .. متى نرحل إلى (مولدافيا) ؟ »

* * *

٢ ـ فصيلة الأطفال ..

ليلة عيد الميلاد ١٩٤٣

لقد تحرك الدب الروسي .. تثاءب ثم بعثر الجليد الذي كسا فراءه الأبيض ، ثم تحرك عبر الوديان طالبا الانتقام ..

المشكلة مع الدب الروسي هي أنه كالمحاصر في حافلة مزدحمة .. لا يستطيع تحريك كوعه دون أن يصدم (بولندا) أو يضرب (المجر) أو يدمي (رومانيا) ..

ويمكن لكل من يلقي نظرة إلى الخارطة أن يدرك دون جهد أن (مولدافيا) هي أول ما يدوس عليه الدب الروسي ، حين يعبر الحدود قاصدا (رومانيا) ..

* * *

والفصيلة السادسة كانت هناك(*) ..

(*) في تقسيم القوات البرية : الفيلق عدد من الفرق ، والفرقة عدد من اللواءات ، واللواء عدد من الكتائب ، والكتيبة عدد من السرايا ، والسرية عدد من الفصائل ، والفصيلة عدد من الجماعات ، والجماعة عدد من الجنود !!

ومن مكمنه وسط الثلوج ، راح الجندى الشاب (هانس مولر) يرمق الغابة البيضاء الجاثمة فى الظلام ..

يبدو أننا نبالغ قليلا لو وصفنا (هانس) بالشاب .. فمن يراه يدرك أنه مجرد طفل ، ومن يعرف عمره الذى لم يتجاوز السادسة عشرة يدرك أنه طفل بالفعل .. طفل بالنسبة لأن تضعه ألمانيا ها هنا مع رفاقه ، وتأمرهم بمنع الجيش السوفييتى من التقدم !!

تأمل عينيه الزرقاوين المتسعتين ، وشعره الأشقر الذى يغطى أعلى عينه اليسرى ، وشفتيه الحمراوين المفتوحتين هلعا ، ولعن معنى الحرب و (هتلر) و (ستالين) وكل الحمقى الذين يحاولون البرهنة على قوتهم ، فيلقون فى أوارها بصبية فى عمر (هانس مولر) ..

وابتلع الصبى ريقه ، وتأمل الصبية من حوله ..

لقد انتهت الحرب هاهنا تماما بالنسبة لألمانيا .. لا يعلم سوى الله ما ستكون عليه نهايتها فى باقى العالم ، ولكن هنا بالذات ـ على الحدود مع الاتحاد السوفييتى ـ صار الأمر مفروغا منه .. مسألة وقت .. مسألة سرعة المدرعات السوفيتية الرهيبة فوق الثلوج .. مسألة الوقت الذى يستغرقه قتل مائة صبى هم ما تبقى من الفصيلة السادسة النازية ..

شهق فتصاعد البخار الأبيض من بين شفتيه ، وهمس :

ـ « موتى (ماما) .. سيموت صغيرك بعد ساعات .. سيرقد فوق الثلوج جنديا مجهول الاسم ، ازرقت شفتاه من البرد ، وحوله بركة من الدماء ... »

غلبته الصورة الدامية ، فراح يبكى .. يبكى ويرتجف ..

* * *

وقال قائل من الأطفال حوله :

ـ « إنهم لن يهاجمونا ليلة عيد الميلاد .. كل الحلفاء سيحتفلون بهذه الليلة ولن يطلقوا رصاصة .. »

قال قائل آخر :

ـ « لا تعتمد على هذا .. فالسوفييت ملحدون ولا يعرفون ليلة عيد الميلاد من سواها .. »

ومن القرية الرومانية البعيدة سمعوا فى الصمت صوت أجراس الكنائس .. وارتجف (هانز) حنينا لقريته .. لليلة كهذه يقضونها جوار المدفأة ينشدون أغانى عيد الميلاد .. تماثيل الأبقار والقش وتمثالا العذراء والقديس (يوسف النجار) .. وشجرة عيد الميلاد ..

دفء المنزل ، وبهجة الحياة التى تنتظر ..

ومن بين شفتيه همس :

ـ « (موتى) ! ماذا تعملين الآن ؟ »

* * *

كانت هذه هي الحقيقة ..

حينما بدأت الحرب تكشر عن أنيابها .. وأدركت ألمانيا أنه من العسير أن تظل فوق الجميع .. كان عليها أن تلقى بمزيد من أبنائها في موقد الحرب ..

وهكذا وجد (هانز) نفسه مجندا بعد تدريب لم يستغرق سوى أسبوعين .. وأرسلوه إلى هنا ليدافع عن (الرايخ) العظيم ..

فيما بعد سيندهش الحلفاء حين يدخلون (برلين) ليجدوا أن المدافعين عنها صبية في الثالثة عشرة من أعمارهم .. أو شيوخ جاوزوا السبعين .. ولسوف يشعرون بالشفقة قبل أن يقتلوهم ..

بالنسبة للفصيلة السادسة ، كان أكثر جنودها البالغين قد هلكوا .. فلم يبق سوى هؤلاء المراهقين المذعورين ، وحدهم في الثلج والظلام ينتظرون أولى المدرعات السوفيتية ..

كانت لديهم مدرعتان لكنهما معطلتان .. وقد قاموا بتغطية أكثر أجزائهما بالملاءات البيضاء على سبيل

التمويه ، لكن المدفع المغطى بالقماش بدا لهم مرعبا كشبح جاثم في الظلام ..

وارتجفت شفتا (هانز) .. وهمس مع مزيد من البخار :

ـ « (موتى) ! إن البرد يقتلني ! »

* * *

لكن التعليمات صارمة .. ممنوع إشعال نيران .. ومعنى هذا .. في جو كهذا .. الانتحار دون قيد أو شرط ..

أجراس الكنائس تدوى بلا انقطاع ..

دنا منه (أوتو) المجند الذي يبلغ سبعة عشر عاما .. زحف على بطنه وسط الثلوج حتى رقد جواره في الخندق .. وأشعل عود ثقاب ودس لفافة تبغ بين شفتيه .. فالحقيقة هي أن ساعات الانتظار علمت كل هؤلاء الصبية التدخين ..

هتف (هانز) في هلع :

ـ « النار ! سيروننا ! »

لامس (أوتو) طرف اللفافة بالجذوة .. وقال :

ـ « لا تكن طفلا .. إنهم يعرفون مكاننا بدقة .. إن هؤلاء الرومانيين يخبرونهم بأدق أسرارنا .. المسألة مسألة وقت لا أكثر .. »



دنا منه (أوتو) الجند الذى يبلغ سبعة عشر عامًا ، زحف على بطنه وسط الثلوج حتى رقد جواره فى الخندق ..

ـ « هل معك سواها ؟ »

ـ « هى الأخيرة .. لكننا سنتقاسمها .. »

ومن مكان ما راح أحدهم يترنم بلحن (ألمانيا فوق الجميع) المفضل للنازيين .. فقال (أوتو) باشمئزاز :

ـ « هلا كف هذا الحمار عن الغناء ! أما زال يصدق هذا الهراء ؟ »

ثم صاح بصوت آمر :

ـ « فلنغن أغنية واقعية يا رفاق .. هيا معى !
أبيض أبيض هو لون ثيابه .. أبيض هو لون أدواته ..
لهذا أحب اللون الأبيض .. لأن حبيبى خبّاز ! »

تصاعدت ضحكات عصبية ، وسرعان ما دوى فى الظلام صوت يستكمل أغنية الأطفال البافارية هذه :

ـ « أخضر أخضر هو لون ثيابه .. أخضر هو لون أدواته .. لهذا أحب اللون الأخضر .. لأن حبيبى بستانى ! »

ـ « ملون ملون هو لون ثيابه .. ملون هو لون أدواته ..
لهذا أحب كل ما هو ملون .. لأن حبيبى رسام ! »

وهنا سمعوا صوت صرير الجنازير ..

ونظر بعضهم للبعض ، ولم يجدوا الوقت الكافى للكلام الآن ...

بـوم !

أضاء الانفجار الظلام ، والتمعت الموجودات .. ثم تحسس كل منهم جسده بحثاً عن إصابات مميتة ..

كان هناك صبيان يرقدان على الجليد وقد تناثر الدم حولهما ، وكفا عن الذعر للأبد ..

ـ « أطلقوا النار ! »

ومن أعلى المنحدر ظهرت أولى الدبابات السوفيتية .. ظهر برجها أولاً كرأس ديناصور يتشمم الهواء ، ثم ظهر باقي الجسم .. وسرعان ما بدأت تهبط المنحدر نحوهم ..

ـ « اضربوا الجنازير .. »

راحت الطلقات تدوى .. لكن ماذا بوسع طلقات المدافع الرشاشة أن تفعل أمام هذا الوحش الحديدى ؟

ـ « أزرق أزرق هو لون ثيابه .. أزرق هو لون أدواته .. لهذا أحب اللون الأزرق ...... لأن ...... »

دبابة ثانية قادمة من أعلى ..

ـ « .. لأن حبيبى بحار ! »

ودوت أربع قذائف جديدة ..

ونظر (هنتر) إلى فخذه فرأى أنه ينزف بغزارة .. غريب !

كان يقرأ دوماً هذه العبارة فى الروايات فلا يصدقها .. كيف يجرح الإنسان دون أن يتألم ؟ لكن هذا حقيقى .. إن شظية قد مزقت فخذه وهو لم يشعر بأدنى ألم ..

سمع صراخ رفاقه فعرف أنهم ـ على الأقل ـ يتألمون ...

الجليد البارد .. الدماء .. رائحة اللحم المحترق .. صرير الجنازير .. رائحة البارود .. أجراس الكنائس .. طلقات الرشاشات .. مذاق الدم المالح الصدئ .. رائحة العرق ..

مئات المؤثرات التى سيذكرها دوماً كلما ....

كلما ماذا ؟ لن يكون هناك غد ، ولن يتذكر شيئاً بعد الآن ..

لقد أبيدت الفصيلة أو ما تبقى منها ..

إنه الموت ...

ـ « أسود أسود هو لون ثيابه .. أسود هو لون أدواته .. لهذا أحب اللون .. لأن حبيبى ....

منظف مداخن ! »

* * *

٣ - ماريانا كاراجيالي ..

في العاشرة صباحا وصلنا إلى (تياموتزو) ..

كان الفندق الذى اختاره لنا (جوستاف) يدعى باسم (لابوخنياتو) . فقلت له فى حيرة :

- « المشكلة هى أننى لو ضللت طريقى فسأفتتح متجرا لبيع الصحف فى المكان الذى أجد نفسى فيه .. لن أستطيع ما حييت أن أتذكر اسم (لابوخنيـاتو) هذا .. »

(ألكسندر لابوخنياتو) - كما قال لى - هو ملك قديم من ملوك (مولدافيا) .. وكان طاغية ، ضايقه تبرم النبلاء بحكمه ، من ثم أقام لهم مأدبة فى قصره ، وأغلق الأبواب عليهم وقتلهم جميعا ، ثم صنع من رءوسهم هرما عاليا أمام القصر .. وكان هذا عام ١٥٦٥م(*) ..

قلت لـ (جوستاف) وقد بدا لى كل هذا مألوفا :

(*) حقيقة

- « أى أن هذا الفندق لو كان فى مصر لصار اسمه (محمد على) ..

لكن قصتك هذه لن تساعدنى كثيرا فى تذكر الاسم .. »

- « إذن هى مشكلتك .. »

* * *

بعد الظهيرة قاد (جوستاف) عربته الفاخرة التى لم يصبها أذى فى (هالماجيو) ، قاصدا أولى القرى التى تحدثت عن رؤية الفصيلة .. وكان اسم القرية هو (برايلا) ..

قابلنا عمدة القرية الذى أحسن وفادتنا ، ودعانا إلى غداء فاخر من البط المحمر مع الكرنب ، والسجق المشوى ، وقهوة تركية .. ثم قنينة من نبيذ (الموسكا) الذى لم ألمسه طبعا ..

كان العمدة عمدة فى كل شىء .. يمكنك أن تلقاه فى (كفر بدر) أو فى (فرنسا) أو هنا فى (مولدافيا) ..

إنه بدين له شارب كث .. متأنق أناقة سخيفة قليلا .. له لهجة واثقة آمرة ، ونظرة الراضى عن نفسه تماما ..

وكان الحكمدار (أيودو) قائد الشرطة فى القرية ضيفا على نفس المنضدة معنا . لكنه لم يتكلم .. ظل يتابعنا فى اهتمام . ولم يبعد عينيه عنى كأنما يشتبه فى ..

بالطبع دار الحوار كله بالرومانية فلم أفهم حرفا . وإن جلست أنظر للمتكلمين فى ذكاء . ولم يتعطف على (جوستاف) بالترجمة لأنه كان يريد الحصول على المعلومة كاملة أولا .. وإن حرص على أن يبدى لى ملاحظاته التحذيرية من آن لآخر : لاتشرب هذا .. إنه نبيذ .. لاتأكل هذا فهو سجق من لحم الخنزير ..

وقد احترمت كثيرا هذه النقطة فى (جوستاف) .. فهو قد يختلف مع عقيدتى أو عاداتى . لكنه يحترمها ويحافظ عليها ..

المهم أن المحادثة انتهت فأشعل (جوستاف) سيجاره الفاخر الشبيه بإصبع السجق . وقال لى :

ـ « العمدة لم ير ولم يسمع شيئا .. »

ـ « هل كان ذكر هذا يحتاج إلى كل هذا الوقت ؟ »

ـ « لكنه متأكد من وجود شىء ما .. »

ـ « جميل .. ومن شهوده ؟ »

ـ « سيحضرهم لنا واحدا تلو الآخر .. ونسوف نصغى ونحكم عقولنا .. »

هنا نظر العمدة إلى الحكمدار وقال له بعض كلمات . فنادى هذا خفير الدرك الواقف بالباب .. وكان عبارة عن شاربين لهما رجل يتدلى منهما . إن الشوارب السلافية العملاقة هذه ....

وجاء الشاهد الأول بعد دقائق ..

كان امرأة فى الأربعين من عمرها . تغطى رأسها بإيشارب مزركش . ولها ضحكة مائعة قليلا .. وأدركت من تبرجها المبالغ فيه أن شيئا ليس على ما يرام فيما يتعلق بها ..

جلست إلى المنضدة وراحت تداعب الخشب بأظفارها المطلية بطلاء رخيص .. وتنظر لنا فى فضول وقد سرها الاهتمام الذى يحيط بها ..

ـ « (ماريانا كارجيانى) .. »

ناداها العمدة باسمها . ثم دارت محادثة طويلة بينها وبين العمدة و (جوستاف) .. لن أندهش لو كانت خلاصة المحادثة أنها لم تر شيئا على الإطلاق . فقد عودتنى اللغة الرومانية على هذا ..

بعد قليل استدار نحو (جوستاف) يترجم لي بالإنجليزية ما قالته .

ـ « (ماريانا) أرملة شابة . ويبدو أن سمعتها ليست على ما يرام في القرية .. »

ـ هذا واضح .. وهو طبعا كلامك لا كلامها .. »

ـ « تقول إنهم عشرون جنديا يمشون في صف طويل .. لا يمشون أبدا متجاورين .. يرتدون معاطف الجلد والخوذات ، وتبدو عليهم كل سمات الجنود المرهقين .. بل إن وجوه أكثرهم ملوثة بالدماء وشعرهم الأشقر يتهدل على جبينهم معجونا بالدم .. ويبدو أن هناك جروحا أكثر من اللازم .. »

ابتلعت ريقي لتصور هذا المشهد الرهيب ، وسألته :

ـ « وماذا يعملون غير الظهور وإثارة الهلع ؟ »

قال وهو يطفئ سيجاره الذي أوشك على خنق المرأة :

ـ « يغنون نشيد (ألمانيا فوق الجميع) بصوت حزين عال .. إن المرأة تعرفه جيدا .. فقد كانت في العشرين من عمرها حين كان الألمان ها هنا في (رومانيا) .. وهي تذكر جزءا لا بأس به من لغة هؤلاء الجنود الشقر .. »

إذن المرأة في السادسة والأربعين من عمرها تقريبا .. إن تقديري للعمر يخطئ كثيرا في هذه الأيام .. ولكن ماذا يفعل هؤلاء النازيون غير الغناء والظهور ؟

ـ « إنهم يقرعون أبواب الفلاحين ليلا .. ويقال إنهم يطلبون الطعام والشراب ، لهذا يضع الفلاحون لهم الخبز والنبيذ على الأبواب المغلقة .. ويقال إن لقاءهم ليس تجربة سارة ، لأن عدد الموتى ليلا في القرية المجاورة قد صار أكثر من اللازم .. »

ـ « وكيف يموت من يموتون ؟ »

استدار للمرأة وسألها عن شيء ما ، فأجابت وهي تنظر لعيني مباشرة ، كأنما تعرف صاحب السؤال .. وكأنني سأفهم كلامها على الفور ..

قال (جوستاف) :

ـ « يموتون بالسونكي .. لم تكن هناك طلقات رصاص ، ولم يكن هناك امتصاص دماء إذا كنت في ذلك تفكر .. لقد تركنا مصاصي الدماء منذ فترة يا (رفعت) .. »

ابتسمت وهززت كتفي :

ـ « لم أعد أثق كثيرا ببلدكم هذا كما تعلم .. »

ثم أردف (جوستاف) مستدركا :

ـ لكن هذا لم يحدث ها هنا قط .. إنه يحدث فى القرى المجاورة .. »

ـ « هذا دأب إشاعات القرويين .. ولو سألت فى قرية مجاورة لقالوا لك إن هذا يحدث هنا .. »

أضاف (جوستاف) وهو ينظر إلى العمدة :

ـ « قال العمدة إن هناك بلاغات حقيقية عن وفيات .. لكن تحقيقات الشرطة لم تنف أو تثبت شيئا ، والسلطات فى (بوخارست) لا تهتم بالأمر كثيرا .. فمن يهتم بالأساطير فى (رومانيا) لن يجد وقتا لشىء آخر ..

وعلى كل حال ليس من المستحب أن يشكو عمدة القرية لمسئول الحزب من أشباح نازية تجول ليلا .. »

ـ « أفهم كلامك .. إنه بعدها لن يظل عمدة يوما آخر .. »

ثم سألته :

ـ « وهل من نظريات ما حول الموضوع ؟ »

ابتسم وحك مقدمة رأسه الذى زال شعره أو كاد ، وقال :

ـ « كالعادة .. يتحدثون عن فصيلة نازية أبادتها الدبابات الروسية ليلة عيد الميلاد عام ١٩٤٣ .. يقول العمدة إنهم كانوا فى القرية يدقون أجراس الكنائس كى لا يسمعوا صوت صراخ الصبية النازيين بينما الدبابات تمزقهم ! »

ـ « صبية ؟! »

ـ « نعم .. إن (هتلر) لم يجد جنودا يرسلهم إلى (رومانيا) ليموتوا سوى بعض الأطفال .. كان بحاجة إلى قوات (البانزر) للدفاع عن (تشيكوسلوفاكيا) و (بولندا) .. بل و (برلين) ذاتها .. »

بدت لى الفكرة رهيبة حقا ..

أن تحضر مراهقا لا يعرف عن الحياة سوى الزهور ، وأغانى الحب ، وقصائد الشعر ، ولعب الكرة مع رفاقه .. تنتزعه من كل هذا وتضعه فى خندق ثلجى وتقول له : (ألمانيا فوق الجميع) .. ثم تتركه وحيدا يواجه رتلا من الدبابات السوفيتية التى لا تمزح ..

إنها لفكرة رهيبة ..

لقد كان (هتلر) سفاحا ، وكان النازيون قتلة ،

لكن المكلف بدفع ثمن خطاياهم ليس بالتأكيد ذلك المراهق الضعيف الوحيد ..

وكأنما سمع (جوستاف) أفكارى ، قال :

- « لقد ارتكب (هتلر) فظائع كثيرة فى (روسيا) .. وحين تحرك (ستالين) أخيرا للانتقام ؛ استطاع - والحق يقال - أن ينتقم بقسوة وعنف وشراسة .. لقد كان النازيون يفضلون الموت بيد الأمريكيين على الأسر بيد السوفييت .. »

- « واحدة بواحدة والبادى أظلم .. لكن ما ذنب الصبية فى كل هذا ؟ »

وهنا تذكرت سؤالا مهمًا ، فملت على (جوستاف) :

- « (جوستاف) .. ما سن هؤلاء الجند الذين رأتهم المرأة ؟ »

ابتسم فى خبث ، وقال :

- « ماذا تظن ؟ بالتأكيد كلهم لم يبلغوا العشرين من عمرهم ! »

* * *

٤ - ميخائيل نجروزو ..

يرتدى سترة صوفية مهترئة ملأى بالبقع ، وقد وضع على كوعيها رقعتين من القماش يدارى بهما مزيدا من الاهتراء ..

يقف على الباب خالعا قبعته فى رهبة ، كاشفا عن رأس أصلع يلتمع بالعرق برغم برودة الجو ، وعلى أنفه عوينات سميكة تجعل عينيه كأنما هى عينتان محفوظتان فى مرطبان لدى طبيب ..

الحق أن (نجروزو) كان منفرا ، لكنه يوحى بالشفقة ..

قال له العمدة أن تقدم يا (ميخائيل) ، فدنا من المنضدة ووضع قبعته أمامه متوقعا أن يقوم السيدان من (بوخارست) بخراب بيته ..

الحق أن الشيوعية كانت - فى (رومانيا) بالذات - ذات سلطة شمولية مفزعة ومرهقة للرجل المسالم العادى .. ولهذا لم أندهش كثيرا لما حدث فى

يقف على الباب خالعًا قبعته في رهبة ، كاشفًا عن رأس أصلع يلتمع بالعرق برغم برودة الجو ..

(رومانيا) في التسعينات من ثورة مسلحة ، وإعدام لـ (شاوشيسكو) .. الحقيقة هي أن المواطن الروماني العادي كان يهاب كل ما هو حكومي ، ويفضل أن يترك وشأنه ..

من جديد دارت المحادثة الرومانية الغامضة ، ثم راح (جوستاف) يشرح لي تفاصيلها ..

- « يقول (نجروزو) - وهو صراف القرية - إن الفصيلة النازية التي أبيدت ها هنا كانت تدعى (الفصيلة السادسة) .. لكن الفلاحين كانوا يسمونها (فصيلة الأطفال) ..

« يقول : إنهم - الفلاحين - جاءوا في الصباح بعد عيد الميلاد عام ١٩٤٣ .. ليجدوا على الجليد نحو مائة جثة ... كلها لشاب في العقد الثاني من العمر .. وكان الجنود السوفييت في كل مكان ، يقولون : إنهم كانوا يمرحون ويضحكون وينتزعون التذكارات من الجثث ، ثم أمروه ومن معه بدفن الموتى ..

« يقول إنه طلب استدعاء قس القرية ليصلي على الجثث قبل دفنها ، لكن السوفييت رفضوا وقالوا : هؤلاء نازيون .. ولا أحد يصلي على النازيين ما لم يكن خائنًا .. »

نظرت إلى الصراف المرتجف ، وأدركت أنه يدارى الكثير من مشاعره وأفكاره .. بالطبع لم يرق له هذا .. وبالطبع عبث الروس المنتصرون كثيرا بالقرية .. لكنه لا يجرؤ على الكلام بصراحة أكثر لأن هذا يعرضه للخطر كعدو رجعى للشيوعية ، ومعوق لحركة تقدم التاريخ ..

أردف (جوستاف) وهو يدون بعض النقاط فى مفكرته :

- « يقول إنهم دفنوا الجثث تحت الجليد ، ولم يضعوا علامات على القبور .. لكنه يذكر جيدا أين تم الدفن .. »

- « وهل رأى هؤلاء الجنود الأشباح ؟ »

- « يقول إنه رآهم مرتين فى ضوء القمر .. فتح نافذته ليراهم يمشون فى صف واحد عبر شوارع القرية ، وكانوا يغنون نشيدا ألمانيا ..

ويقول إن أحدا لم يجرؤ قط على مغادرة داره لرؤيتهم .. إلا أنه سمع طرقاتهم على بابه أكثر من مرة .. »

- « ولم يفتحه طبعا ؟ »

- « لا أحد يجسر على ذلك .. »

ساد الصمت برهة .. ثم تكلم (نجروزو) .. كانت عيناه تلتمعان رعبا خلف عويناته ، لكنه يواصل الكلام بلا انقطاع ، وأدركت أنه يتخلص من سر أثقل كاهله لفترة لا بأس بها ..

قال (جوستاف) :

- « يبدو أن الأرملة (روكساندرا) قد سمحت لهم بدخول دارها مرة أو مرتين .. يقولون إنها مخبولة تماما .. فقدت زوجها فى الحرب ، ومن يومها عاشت وحيدة .. هى اليوم فى السبعين من عمرها ، ولم تعد الأشباح تخيفها .. »

قال العمدة فى غضب بضع عبارات ، ففسر لى (جوستاف) :

- « العمدة يلومه على أنه لم يقل هذا من قبل .. إن (روكساندرا) هذه ستكون خير عون لنا لو ظلت حية حتى نستجوبها .. »

ثم نظر لى وقال بلهجة رصينة :

- « دعنا نرتب أفكارنا .. ما هو انطباعك عن كل هذا ؟ »

قلت وأنا أرشف القهوة التركية التى بردت تماما :

ـ « لو كان هذا حقيقيا فالقصة واضحة .. لقد مات هؤلاء الصبية غاضبين مذهولين فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ..

« لم يظفروا بقبور محترمة ولا صلاة .. لهذا ـ كما يقال دوما ـ ظلت أرواحهم قلقة هائمة فى المكان الذى قتلوا فيه .. »

دون مزيدا من الملاحظات فى مفكرته .. ثم سألنى :

ـ « إن ثلوج (رومانيا) تدارى آلاف الجنود القتلى .. دعك من ثلوج (ستالنجراد) ورمال (العلمين) وما إلى ذلك .. فلماذا يهيم قتلى هذه الفصيلة بالذات ؟ »

وضعت قدح القهوة ، وقلت محاولا ألا أبدو أحمق :

ـ « أنا لا أتحدث عن شىء أعرفه جيدا أو أفهمه يا (جوستاف) .. كل هذه أقاويل .. لكن روح المراهق تكون أكثر قلقا وتوترا من روح البالغ .. وأنت تعرف طبعا ما يقال عن قابلية المراهقات الخارقة للوساطة فى تحضير الأرواح . أو تعرضهن للمس الشيطانى .. »

ابتسم بغموض .. لا أدرى أيسخر أم يتقبل حقيقة قاسية .. وسألنى :

ـ « والحل ؟ »

ـ « أحيانا يكون الصواب هو استخراج الأجساد المدفونة .. ووضعها فى قبر لائق .. »

ـ « وتريد أن أقول هذا لحكومة (شاوشيسكو) ؟ أرجو استخراج أشلاء النازيين من فضلكم لتهدأ الأرواح الجوالة ! »

قلت مغتاظا :

ـ « أنت تسألنى عن رأيى .. وقد قلته .. »

كان العمدة والصراف المذعور يصغيان لمحادثتنا الإنجليزية فى اهتمام ودون فهم .. لكن اسم (شاوشيسكو) صدم أذنيهما متوترا .. إن الأمور تزداد خطورة إذن ..

هنا قرر الصراف أن يضيف معلومة جديدة ، وكان مؤداها :

ـ « لقد ظهر هؤلاء الجنود منذ عام أو أقل .. وهم يجولون فى كل القرى المحيطة بـ (تياموتزو) دون استثناء .. يمكن أن تراهم فى أية قرية ، فى أية ليلة دون نظام محدد .. لهذا يؤثر الفلاحون السلامة ويغلقون الأبواب عليهم ، ويضعون على بابهم ما يصلح

لإطعام هذه الأشباح الجائعة .. وفى الصباح كثيرا ما يجدون أن الخبز قد اختفى . والشراب قد فرغت زجاجاته .. »

قلت وقد غالبت ضحكة ساخرة :

ـ « غريب أمر الأشباح المتسولة الجوعى هذه .. أى منطق يقول إن الأشباح تأكل طعامنا ؟ »

قال (جوستاف) فى جدية :

ـ « أحقا لم تر تجربة مماثلة ؟ »

ـ « فى مصر ما زالت أمهاتنا يقدمن الطعام للطفل الرضيع . ويسكبن بعضا منه على الأرض (لكى تأكل أخته معه) ـ أخته التى تعيش تحت الأرض طبعا ـ وفى (هاييتى) يضع الناس الخبز والملح على الأبواب ليلا ليأكل منها (الزومبى) الخارجون من قبورهم .. إن للملح هنا أهمية خاصة ؛ لأنه ينهى حالة (اللاموت) التى يعانيها (الزومبى) .. لكنى ما زلت أراها فكرة سخيفة حقا .. »

قال (جوستاف) :

ـ « لكن هذا لا يمنع أن الطعام يؤكل ـ فى حالتنا هذه ـ وأكله ليس عابر سبيل .. »

ـ « إن هذا جدير بالتجريب .. »

نظر (جوستاف) إلى العمدة . وقال شيئا ما بالرومانية . لكنى تمكنت من سماع اسم (روكساندرا) .. فهز العمدة رأسه بأسف وقال شيئا آخر ..

قال (جوستاف) مفسرا :

ـ « سألته عن حضور الأرملة ها هنا فـ .. »

قاطعته مكملا الجملة :

ـ « .. فقال إنها قعيدة ولا بد من أن نذهب إليها .. هل نسيت كلامى عن الأفلام البنغالية ؟ إن لغة الإشارات والإيماءات كافية جدا لتفسير سبعين بالمائة من الأمور .. »

نهض (جوستاف) وتثاءب دون كياسة . قائلا بالإنجليزية :

ـ « يا سادة .. إنه الوقت الذى نفرد فيه أرجلنا .. »

وشكر العمدة . واعتقد أنه سأله عمن يقودنا إلى دار الأرملة (روكساندرا) . فأشار العمدة إلى الصراف .. إنه هو من سيصحبنا إليها . فمن الواضح أنها جارته إذن .. سألت (جوستاف) ..

ـ « هل سنبيت ها هنا ؟ »

نظر إلى ساعته فوجد أن الشمس تغرب بعد ساعة ، فقال لى :

ـ « لا داعى لذلك .. إن الخان فى هذه القرية ليس أفضل حالا من خان (كرايوفسكا) .. هل تذكره ؟ فلنمنح أنفسنا وضمائرنا لفندق (لابوخنياتو) المريح فى (نياموتزو) .. »

سرنى أنه ذكرنى باسم (لابوخنياتو) بعد ما كنت قد نسيته .. كيف يمكن تذكر هذه الأسماء التى لاتحوى أية علامة ربط ؟ من السهل تذكر اسم (نياموتزو) لأننا سنكون فيها (نيام) .. و(برايلا) شبيهة بطريقة (برايل) فى الكتابة .. لكن أى شيطان يمكنه تذكر اسم (لابوخنياتو) هذا ؟!

أشار (جوستاف) إلى الصراف كى يتقدمنا ..

هززت رأسى للعمدة محييا ، وغادرت الغرفة ..

* * *

٥ - روكساندرا برباياني ..

فيما بعد عرفت من (جوستاف) أن (ميخائيل نجروزو) وقف تحت نافذة العجوز يناديها قائلا :

ـ « أنا (ميخائيل) يا خالة (روكساندرا) .. ومعى ضيفان من (بوخارست) .. »

ثم اتجه إلى الباب ، وفتحه بعد هذا التحذير ..

كانت العجوز القعيدة تترك بابها غير موصد .. هى لا تهاب شيئا لأنها ـ كما هو واضح ـ لا تملك ما يسرق .. سواء كان مالا أو جمالا .. كل القرية تعرفها وهى تعرف كل القرية .. فماذا يدعوها لطلب الخصوصية ؟ وكما قال (جوستاف) :

ـ « إن النسوة يقمن بزيارتها يوميا .. بعضهن ينظفن لها الدار ، وبعضهن يطهين لها أو يغسلن .. إن هذه العجوز هى مسئولية الجميع .. ولا أعتقد أنها تعانى الوحدة .. »

ـ « بل تعنيها ما دامت تقبل استضافة الأشباح النازية .. »

* * *

وبالداخل كانت الدار نظيفة جدا .. لم لا ما دامت عشر نسوة ينظفنها كل يوم تقريبا ؟ وكانت الشمس تغمر أكثر أجزائها .. شمس بهيجة نظيفة بدورها ، وإن كانت تنحدر بسرعة إلى الغرب ..

هذا البيت ـ حتما ـ لا يناسب الأشباح خاصة النازية منها ..

ورأيت طفلا وطفلة غاية في الجمال يخرجان راكضين من الباب ، وهما يتصايحان مرحا .. لقد كانا يلعبان المساكة في دار العجوز ..

هذه الدار ـ حتما ـ ليست من الديار التي يحرم على الأطفال الدنو منها .. وجوار النافذة جلست الأرملة العجوز ...

من جديد أقول إنها لم تكن مرعبة كما ينبغي لها أن تكون .. عجوز مسالمة وديعة ، لها ضحكة فاتنة ، حتى لتتمنى أن تريح رأسك على ركبتها وتقول لها (ماما) .. باختصار لم تكن تشبه (الأخت الكبرى) في شيء ..

ضحكت لنا فامتلأ وجهها المجعد بمزيد من التجاعيد ، وقالت عبارات بالرومانية بعثت السرور لدى (جوستاف) ..

جلسنا حولها ، ونهض الصراف الخائف دوما ، ليصب لنا شرابا أحمر في ثلاث كئوس . ذلك الشراب الذي عرفت من (جوستاف) أنه شراب رمان غير مختمر (جرينادين) ..

محاورة قصيرة مع (جوستاف) .. صوت المرأة رفيع أقرب إلى صوت الأطفال ، مع رعشة لا بأس بها بسبب الشيخوخة .

قال لي (جوستاف) :

ـ « تقول إنها تعيش هنا وحدها منذ وفاة زوجها ، وإن داء (الروماتويد) قد أحالها إلى تمثال متكلم .. »

كنت أنا ـ دون جهد ـ قد لاحظت يديها ، ورأيت تشوهات عنق البجعة ، وحرف (Z) ، وعروة الزر وكل التشوهات الروماتويدية التي كنا لا نراها إلا في كتب الطب .. إن هذه العجوز ثروة طبية حقيقية ..

أردف (جوستاف) :

ـ « تقول إنها لم تر أشباحا .. هناك صبية ضالون

يمرون ليلا بدارها ويسألون الدخول فتسمح لهم ..
أنها تعتبر نفسها أما لكل الصبية الضالين منذ مات
زوجها دون أن يترك لها أبناء .. »

ـ « وكيف تفتح لهم الباب ؟ »

ـ « الباب مفتوح كما ترى .. هي فقط تنادى من
فراشها بصوتها الرفيع تقول لهم أن يدخلوا ،
وتخبرهم بأن الجيران تركوا لها بعض الخبز والشراب
واللحم المقدد فى المكان الفلانى .. طبعا لا داعى أن
أشرح لك أن الجارات هن من يضعن المرأة فى
فراشها ليلا ويتركنها .. »

اتسعت عيناى ذهولا ، وتأملت العجوز .

ـ « هل تعنى أنها لم تبصر زوارها قط ؟ »

ـ « حقا .. وهذا لن يقدم أبحاثنا كثيرا .. »

عدت أسأله في فضول أكثر اشتعالا :

ـ « وماذا عن أصواتهم ؟ كلامهم ؟ عاداتهم ؟ »

سألها عن ذلك ، ثم قال لى :

ـ « تقول إن أصواتهم أصوات صبية مراهقين ،
وهم يتحدثون الرومانية الرديئة التى داخلتها لهجة
أجنبية ما .. لكن عاداتهم هى عادات أى مجموعة من
المراهقين .. يمزحون بصوت عال .. يتبارون فى

ألعاب القوى .. يحيلون المكان الذى يسهرون فيه إلى
حظيرة ثيران .. »

ـ « تعنى أنها لا تجد شيئا غريبا فى كل هذا ؟ أن
يزورها عشرون شابا مراهقا كل ليلة .. »

ـ « بل بعض الليالى .. »

ـ « ولا أحد يعرف من أين جاءوا ولا أين يذهبون ..
لكنها تحبهم على كل حال ؟ »

ـ « هذا ما يبدو من الأمر .. إن العجوز على قدر من
الخبال كما هو واضح .. لكنها ليست خير شاهد لنا .. »

طلب منها (جوستاف) شيئا ما ، فأشارت بيدها
موافقة .. من ثم دعانى كى أنهض معه وخرجنا إلى
غرفة كبيرة تناثرت بها المقاعد والأرائك مما جعلها
أدنى إلى حجرة جلوس .

قال (جوستاف) وهو يتحسس قطع الأثاث :

ـ « هنا يجتمع هؤلاء القادمون ليلا .. إن الغرفة
يتم تنظيفها بعناية لكنى أرجح أن يكون هناك أثر ما .. »

رحت أتأمل المكان : البساط يدوى الصنع ..
المقاعد التى لا يشبه واحد منها الآخر .. المعزف
القديم فى ركن الغرفة .. صورة على الجدار باللون
الأبيض والبنى المميز لصور الماضى . يظهر فيها

رجل رومانى كث الشاربين له نظرة حمقاء .. إنه المرحوم (بربيانى) زوجها طبعا .. كل المتوفين تبدو صورهم متشابهة

لا شىء يثير الاهتمام ...

ولكن .. هناك عند الجدار - قرب الأرضية - بقعة ما .. انحنيت وتفحصتها بعناية .. كانت لزجة قليلا لكنها لا تترك أثرا فى الأصبع حين تضغطه عليها .. وكانت مساحتها قريبة من مساحة منديل اليد المفرود .. ويميل لونها إلى الأخضر ..

- « مطواتك يا (جوستاف) .. »

مد يده فى جيب معطفه . وناولنى مطواته السويسرية التى يحبها كثيرا .. ففتحت نصلها ورحت أحك المادة اللزجة فى رفق لتسقط منها شذرات فى منديلى ..

راح يرمقنى بعض الوقت محاولا أن يفهم . ثم سألنى وقد نفد صبره من هذا العمل المخبول :

- « بحق السماء ماذا تفعل ؟ »

قلت وأنا أدس المنديل فى جيبى :

- « أجمع آثارا .. إن هذه المادة اللزجة قد تكون عيبا فى الدهان . وقد تكون مادة (الاكتوبلازم) أو



طلب منها (جوستاف) شيئا ما ، فأشارت بيدها موافقة ...

(الجبلة الخارجية) .. إن الأشباح تترك كثيرا منها فى أعقاب ظهورها ، ويعنى هذا ألا دعابة فى الموضوع .. »

بدا عليه الاهتمام .. وسألنى :

ـ « وكيف نتأكد ؟ »

ـ « حين نعود إلى (بوخارست) سنتمكن من تحليلها .. »

واصل تفقد المكان ، ومن طرف عينى رأيت الصراف المذعور يقف على الباب فى وضعه المميز منحنيا وقبعته بين يديه .. وكان يراقبنا متسائلا فى سره عما نفعله بالضبط ..

كانت الشمس قد صارت أرجوانية تماما ، وبدت الرؤية أكثر عسرا .. من ثم قال (جوستاف) وهو يتنهد :

ـ « قد آن أوان العودة .. إننى أكره قيادة سيارتى فى الظلام .. »

واتجهنا إلى الباب ، وتبادل بضع كلمات مع الصراف ..

ثم غادرنا الدار إلى السيارة الـ (رابارجيتس) الواقفة تنتظر فى نفاد صبر ، لوح بيده للصراف ثم أدار المحرك وانطلقنا ..

قلت له وأنا أغلق زجاج نافذتى فقد كان الجو يبرد بسرعة :

ـ « ظننتك ستقرر قضاء الليل هنا .. »

قال وهو يشعل سيجاره :

ـ « بعد ما حدث فى (هاتماجيو) و(كرايوفسكا) لم أعد متحمسا لهذا .. فى كل مرة كان الأمر ينتهى بكارثة من نوع ما .. »

ثم نفث سحابة دخان تكفى جيلا .. وقال :

ـ « سنعود لدار هذه العجوز فى ليلة أخرى .. ولسوف ننتظر قدوم هؤلاء الصبية الضالين .. الحق أن هناك أشياء لا تريحنى هنا .. »

ـ « مثل (الجبلة الخارجية) ؟ »

ـ « أنت وجبلتك هذه ! »

قالها فى نفاد صبر .. وأردف :

ـ « أنا لا أحب مصطلحات المشعوذين هذه ! »

صعد الدم إلى رأسى ، فلو كان معى مدفع (هاون) لاسترحت ولارتكبت أول جريمة قتل عمد فى حياتى .

ـ « (جوستاف) .. أنا لست مشعوذا .. لقد قلت لك ما يقوله خبراء الـ (ميتافيزكس) ، وليس معنى ترديدى لكلام (بوذا) أننى بوذى .. »

حرك ذراع السرعات وقد خرجنا من شوارع القرية .
وقال :
ـ « إن كنت أسأت معذرة . فلم أقصد إساءة .. لكننى أردت قول أن ما يثير ريبتى هو شىء مادى ملموس .. »
ـ « مثل ماذا ؟ »
مد يده إلى جيب معطفه . وأخرج شيئا صغيرا ناولنى إياه
تأملت الشىء فى كفى .. وقالت :
ـ « ما الغريب فى قلادة معدنية تمثل صليب القوات البرية النازية ؟ من السهل الحصول عليها دوما .. »
مد يده فى جيب معطفه . وبحذر أخرج شيئا آخر وسألنى :
ـ « وهذا ؟ »
هنا صرخت جزعا .. إننى طبيب لكننى لا أحب أصابع الأيدى المتآكلة حين توضع فى يدى .. خاصة حين لا أتوقع وجودها ..
ألا توافقنى على هذا ؟

* * *

٦ ـ الليلة نلقاهم ..

رميت الشىء فوق حجر معطفه . وصحت فى تقزز :
ـ « يا لك من بشع ! كيف طاوعتك نفسك على وضع هذا الشىء فى جيبك ؟ »
قال وهو يعيده إلى جيب معطفه . وعيناه تدمعان ضحكا :
ـ « لقد وجدته فى غرفة المعيشة . وخطر لى هنا أن كل مغامرة تجمعنا لا بد أن يكون فيها إصبع مبتور .. بدا لى هذا مضحكا .. ثم إننى رأيت أهوالا أكثر فى حياتى فصار من العسير جعلى أتقزز .. »
ونظر لى وابتسم . ثم عاد يتابع الطريق بعينيه :
ـ « الحق إننى لم أحسب الأطباء سريعى التأثر هكذا .. »
ـ « إنها المفاجأة .. »
قال وقد استعاد جديته :
ـ « من هذا نستخلص نوعية الضيوف الذين يزورون

الأرملة ليلا .. إن نوعية خاصة جدا من الضيوف هي التي تترك صنبتنا نازية وأصابع متآكلة مبتورة في غرفة الجلوس .. »

كان الليل قد غمر الطريق بعباءته السوداء ، ولم تكن الإضاءة على ما يرام في هذه السبل الريفية .. لكن كشافي سيارة (جوستاف) كانا يؤديان عملهما جيدا .

قلت له في توتر :

ـ « (جوستاف) ! يجب أن نرى هؤلاء الزوار .. »

ـ « سنعود غدا بالتأكيد .. سنعود .. لكن ..... »

وتصلبت عيناه على (التابلوه) ، وقال لفظة رومانية ما لعلها سبة ..

فسألته في قلق :

ـ « ماذا هناك ؟ »

عاد يتفحص (التابلوه) ويغمغم بالرومانية ، ثم قال في شرود :

ـ « البنزين .. لا يوجد بنزين كاف ! »

من جديد صعد الدم إلى رأسي .. هذا الـ (جوستاف) سيجعلني أعود لـ (مصر) مشلولا مصابا بنزف مخي .

قلت محنقا :

ـ « كالعادة ـ وككل الآخرين ـ تتصرف بغباء لا مبرر له .. لماذا لم تزودها بكفايتها في (نياموتزو) قبل الرحيل ؟ »

قال في قنوط كأنما قد غرق بلا أمل في بحر عميق :

ـ « لقد ملأت الخزان وأقسم على هذا .. ثمة شيء ما خطأ .. »

عرفت أنه صادق من صوته ونظرة عينيه ..

لكن ما جدوى التأكد ما دام مؤشر البنزين يشير إلى صورة مضحكة البنزين إياها ، ومصباح التحذير يتوهج مرارا ؟

ـ « هل توجد محطة بنزين قريبة ؟ »

ـ « لا أعرف .. إنني ..... »

هنا أصدرت السيارة حشرجة أخيرة كأنما تختنق بآخر قطرات في خزانها ، وتوقفت نهائيا إلى جانب الطريق ..

ترجلت من السيارة .. ودرت حولها ..

وعلى الضوء المنبعث من الكشافات الخلفية ؛ استطعت أن أرى قطرات البنزين المتساقطة على طول الطريق .

زحفت بثيابى إلى ما تحت السيارة .. كانت رائحة البنزين نفاذة حقا . وفى الظلام تحسست بيدى فشعرت بقطرات مبللة تتساقط عليها هناك من ثقب خرطوم البنزين ليجعل رحلتنا قصيرة ..

لقد استطاعت السيارة أن تتحرك أبعد مما يتوقع أحد . وهى تنزف وقودها دون كلال .. لكن لكل شىء نهاية مهما ابتعدت ..

قال (جوستاف) وهو لم يغادر مقعده بعد :

ـ « ماذا تحاول إثباته ؟ أتبحث عن مخدرات ؟ »

قلت وأنا أخرج متثاقلا من تحتها :

ـ « ثمة ثقب فى خرطوم بنزين سيارتك .. هل هذا التفسير كاف ؟ »

صاح فى دهشة :

ـ « أحدهم ثقبه ؟ من ؟ »

ـ « ليست العثة بالتأكيد .. »

ـ « ولماذا ؟ »

نفضت ثيابى ، وعدت لأجلس جواره فى السيارة الفاخرة ، وقلت :

ـ « لماذا ؟ لأن هناك من يريد أن نتوقف هنا .. أولا نبتعد عن القرية كثيرا .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « كى يحدث لنا ما سيحدث لنا الآن ! »

وأضفت مستمتعا بإثارة غيظه :

ـ « إن من فعل هذا فعله ببراعة .. فهو لم يحدث ثقبا كبيرا يمنعنا من مغادرة بيت العجوز . أو يؤدى لاكتشافنا بقعة بنزين كبيرة قبل التحرك بالسيارة .. فقط أحدث ثقبا صغيرا جدا يؤدى عمله ببطء .. »

تنهد (جوستاف) مستسلما .. وقال :

ـ « ليكن .. هذا يجعل مهمتنا مزدوجة .. البحث عن محطة بنزين . والبحث عمن يستطيع سد هذا الثقب أو استبدال الخرطوم .. »

وفتح بابه قائلا ، وهو يطفئ الأنوار :

ـ « فلنعد إلى القرية إذن .. »

ـ « إن السير يستغرق ساعتين أو أكثر .. »

ـ « والبقاء هنا يستغرق يومين أو أكثر .. »

وهكذا غادرنا السيارة .

غادرنا الحصن الآمن الدافئ الذى يمتاز ـ فى الظروف العادية ـ عن باقى الحصون بأنه يتحرك بسرعة بعيدا عن الخطر ..

بدأنا المشى فوق الأسفلت غير الممهد جيدا ،

قاصدين القرية .. إن كل مغامرة لى مع (جوستاف) تنتهى بالمبيت فى مكان غير متوقع .. لقد صار هذا مملا ..

ابتعدنا عشرين مترا حين أدركت أن المهمة ستكون عسيرة نوعا .. فالظلام دامس حقا ، والقمر ليس هناك ليلقى بعض الظلال .. صحيح أننى أمقت الظلال وأحب الظلام المتجانس .. لكنى بحاجة إلى حد أدنى من القدرة على الإبصار ..

هنا هتف (جوستاف) بصوت كالفحيح :

ـ « (رفعت) ! هل تراهم ؟ »

نظرت نحوه فى غباء :

ـ « هم ؟ »

رأينا ما يتحدث عنه .. صحيح أن الرؤية غير واضحة إن لم تكن مستحيلة ؛ لكنى استطعت أن أرى صفا من الماشين يتقدم نحونا ببطء عبر الطريق المظلم .. ولسبب ما لم أحب كثيرا أن أنتظر لأرى وجوههم ..

وسمعت صوت نشيد يخرج من الحناجر ، تبعثره الريح فى كل صوب ، فلا يصل إلى مسامعنا سوى بضعة مقاطع ..

أنا لا أجيد الألمانية .. لكنى أعرفها حين أسمعها .. كانوا يغنون بالألمانية ..

★ ★ ★

« يغنون نشيد (ألمانيا فوق الجميع) بصوت حزين عال .. إن المرأة تعرفه جيدا ، فقد كانت فى الرابعة والعشرين من عمرها حين كان الألمان هاهنا فى (رومانيا) .. »

★ ★ ★

« فتح نافذته ليراهم يمشون فى صف واحد عبر شوارع القرية ، وكانوا يغنون نشيدًا ألمانيًا .. »

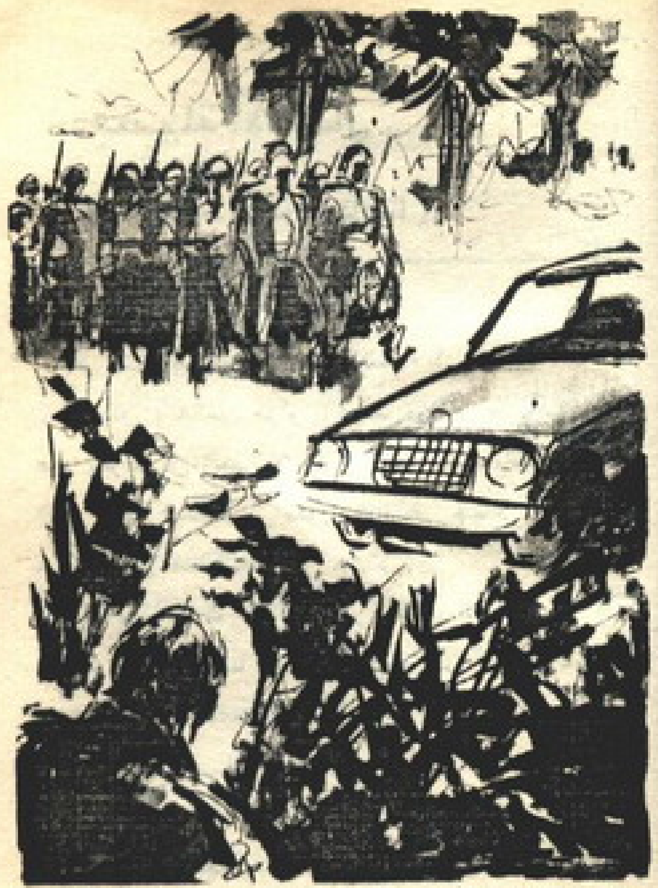
★ ★ ★

ـ « (جوستاف) ! فلنتوار بعيدًا ! »

قلتها له وأنا أقتاده من يده إلى جانب الطريق ، فراح يلهث وهو يدفع جسده المكتنز دفعا إلى هناك .

كان هناك منحدر بسيط ، ثم مجموعة من أشجار البلوط .. فجذبته جذبا إلى ما وراء شجرة منها ، ووقفنا نعبّ الهواء فى جشع كما يعبّ الجمل الماء بعد صيام طويل .. أتمنى ألا يكون صوت لهاثنا عاليًا إلى الحد الذى ......

صوت الغناء يعلو باستمرار ..



لاحظت كذلك أنهم يتحركون كآلات مبرمجة .. لا ينظرون يمناً ولا يساراً ، ولا يأتون بحركة واحدة تدلّ على الحياة ..

من موضعنا استطعنا بوضوح أن نرى الطابور الطويل الذى يتقدم فى الطريق .. حقاً صدقت الأرمنة - ماذا كان اسمها ؟ - حين قالت إنهم لا يمشون متجاورين أبدا ..

كان أولهم هو أطولهم قامة ، وكان يفرد صدره فى كبرياء عسكرى ويحدو بالإنشاد من يمشون خلفه ..

برغم الظلام أدرك أنهم يرتدون الخوذات ، والمعاطف الجندية الطويلة إياها ، ويرفعون أقدامهم فى أثناء المشى فى زاوية شبه قائمة فيما يسمونه (خطوة الأوزة) .. خطوة النازيين الشهيرة ..

كان المشهد رهيبا بحق .. وسرنى هذا إلى حد ما .. سرنى أننى بعد كل ما رأيت مازلت قادرا على الخوف والإحساس بالرهبة .. إننى بشرى .. ولم أتحول إلى صنم (يغوث) بعد ..

لاحظت كذلك أنهم يتحركون كآلات مبرمجة .. لا ينظرون يمينا ولا يسارا .. ولا يأتون بحركة واحدة تدل على الحياة ..

كانوا يتجهون نحو سيارتنا الواقفة ..

ولم يعد استنتاج الباقى صعبا .

* * *

٧ ـ فصيلة الأطفال ..

(ولا يوجد تكرار هاهنا)

إنه الصباح ..

هل هكذا يبدو الصباح فى الجنة ؟

لم يكن (هانس مولر) واثقًا من أن هذه هى الجنة فهو يعرف أن الجنة لا مكان فيها للألم الذى يمزقه الآن ، كما استبعد أن تكون هذه هى جهنم .. مستحيل أن يظل كل هذا الجليد فى جهنم ..

بعد قليل أدرك أنه لم يغادر عالمنا قط ..

لقد كان مدفونـًا تحت الثلج ، لكن الجليد لم يغط صدره .. كانت حوله بركة من الدماء المتجمدة ، ومن حوله رأى أشلاء كثيرة مبعثرة

إنه حى .. بالتأكيد حى ..

لقد انتهى الهجوم السوفييتى .. ولم ينته هو معه كان هناك أربعة رجال يدنون منه ، وأدرك من

مظهرهم أنهم فلاحون روماتيون بسطاء ، يحملون الرفوش وعلى وجوههم آيات الرهبة ..

أحاطوا به .. فلم يتحرك .. ظل يرمق عيونهم باحثًا عن معنى ما .. لكنه لم يفهم .. هل هم معه أم ضده ؟

بعد صمت طال قال أحدهم ـ الرجل ذو الشعر الأشيب ـ بالألمانية :

ـ « لا تخف يا بنى .. لقد جئنا لدفنك لكن الأوان لم يأت بعد .. »

ولم يدر كيف أخرجوه من تحت الثلج ..

نزعوا معطفه ووضعوا معطفًا قديمًا مهترئًا على كتفيه .. وكانت خوذته قد سقطت ، فوضع أحدهم قلنسوة صوفية على رأسه ..

ومتوكئًا على ذراعى اثنين منهم ، اقتادوه إلى القرية

وأدرك (هانس) برغم ضعفه أنهم جعلوه يبدل مظهره كى لا يتعرفه السوفييت إذا لقيهم صدفة ..

* * *

إنه الصباح ..

« وفى الضوء اليانع استطاع أن يرى الدبابات السوفيتية فى ساحة القرية ، وأن يرى بعض رجال الجيش الأحمر يقفون من بعيد أمام الكنيسة .. ولم يكونوا منظمين أو يرتدون زيا موحدا ، بل هم خليط من القوقاز وفلاحى (أوكرانيا) و (أوزبكستان) يرتدى كل منهم زيه الخاص ..

لم يمنحه مرافقوه وقتا للتأمل أكثر لأنهم أدخلوه فى أزقة ضيقة مظلمة ، حتى وصل إلى باب بيت ..

وفى الداخل كانت المدفأة تتوهج بالدفء .. نزعوا معطفه وأعطوه ثيابا جافة ، وقدموا له نبيذ (الفوسكا) ..

واسترخى على فراش بسيط ، بينما فتاة شابة حسناء تغسل جروحه بخرقة مبتلة بالماء الدافئ .. الماء الذى تحول إلى دماء سريعا ..

قال لها الرجل ذو الشعر الأشيب شيئا بالرومانية ، فأحضرت مقصا وانحنت تمزق سروال الفتى حول خن فخذه حيث أصيب أمس ..

قال الرجل بالألمانية وقد لمح توتر الشاب :

- « لا تخف .. إنها ابنتى (ماريانا كراجيانى) .. وهى ممرضة تعرف ما ينبغى عمله .. »

كانت حقا تعرف ما ينبغى عمله ..

لقد استخرجت الشظية بدقة ، ثم ضمدت الجرح ، وبالخرقة راحت تزيل آثار الدماء من وجه الصبى ..

قدر أنها فى العشرين من عمرها تقريبا .. كانت جميلة حقا ، لكن عنايتها به جعلتها فى نظره أجمل شىء رآه فى حياته .. حتى كاد يرى هالة الملائكة تحيط برأسها كما فى الصور الدينية ..

نظر إلى الرجل أشيب الشعر ، وهمس بإنهاك :

- « أشكرك على هذا يا سيد .. ولكن ماذا يدعوك لهذا ؟ »

قال الرجل وهو يدير ظهره ليتأمل المدفأة :

- « لأننى إنسان أولا يا (فرتيز) .. »

(فرتيز) كناية عن أى جندى ألمانى .. كما نسمى نحن أى جندى مصرى بـ (دفعة) .. لهذا صحح (هانس) الاسم :

- « (مولر) .. (هانس مولر) .. »

هز الرجل رأسه وقال :

ـ « ليكن يا (مولر) .. أنا إنسان وأمقت أن أترك صبيا مثلك يموت في الثلوج ، لمجرد أن (فوهرركم) سفاح و (ستالين) طاغية .. لقد وقعتم يا بني بين شقي الرحى .. ولن أنضم ما حييت إلى أحد الحجرين اللذين يسحقانكم .. »

هنا رأى (هانس) رجلا ناحلا مذعورا يدخل الغرفة ، ليقول بضع عبارات بالرومانية .. فقال الأب :

ـ « هذا ميخائيل نجروزو) ، وهو صديق عزيز .. يريد أن أنقذ نفسي وأخبر الروس بوجودك هنا .. لكنه ساذج حقا .. يحسب أنهم سيأسرونك ويعاملونك كما تنص اتفاقية (جنيف) .. »

وبصق في المدفأة وأردف :

ـ « إنها حرب قذرة .. لا مجال للفروسية ولا النبل فيها .. أنتم الألمان وحوش .. والسوفييت مسعورون .. وليس لك أن تتوقع معاملة شريفة أبدا .. »

قال وهو يرتجف من فرط الألم الخارق :

ـ « إذن ما مصيري ؟ لست ميتا ولا أسيرا .. فمن أنا ؟ »

ـ « هذا ما سنراه في الصباح حين تستعيد قواك .. »

* * *

مرتديا ثياب فلاح روماني ، مشى (هانس) مع منقذيه إلى حدود القرية .. ساحة الكنيسة .. القس الأرثوذكسي بثيابه السوداء ولحيته البيضاء الكثيفة ..

كانت القرية تعج بالسوفييت ، ويبدو أنهم انتخبوا رجلا كي يكون العمدة ، وهي الأيام الأولى التي بدأت (رومانيا) فيها تتحول إلى ذبابة شيوعية واقعة في خيوط العنكبوت الروسي ..

لكن (هانس) لم يكن في حالة تسمح بملاحظة كل هذا .. كان جل تفكيره في محاولة التخفي .. هو يعرف جيدا أن عملاء السوفييت كثيرون بين أهل القرية ، ولسوف يسعدهم كثيرا أن يبلغوا الجنرال (مينكوف) قائد السوفييت أن جنديا نازيا ما زال حيا ..

كانت ساحة الكنيسة تحيطها الأشجار ، وثمة تمثال للعذراء تم نحته بذلك الطابع البيزنطي المميز ، وأدرك (هانس) أن هناك بابا سريا أسفل التمثال ..

انحنى القس ليجثو على ركبتيه ، ويرفع مقبضا ما .. ثمة درجات تقود إلى أسفل .. ثم القبو المظلم الرطيب تلهو فيه الفئران ، وتلتهم خشب البراميل المتآكل ..

كان كل هذا بهيجا .. فهو - على الأقل - يعني الأمان والعزلة ..

وأشعل (نجروزو) مشعلاً أو اثنين فتوهج الضوء المتراقص في أرجاء المكان ، وقال (كاراجيالي) بنبرته الألمانية المهشمة :

ـ « هذا القبو يصلح للاختباء .. كنا نداري فيه الهاربين من الأتراك منذ قرون ، وهو ما زال يصلح .. »

سأله (هانس) بصوته الذي يتحسس أبواب الرجولة :

ـ « إلى متى ؟ »

ـ « إلى أن نجد سبيلاً لتهريبك إلى (تشيكوسلوفاكيا) .. ستلحق بجيشك النازي .. »

وهنا سمع من يناديه بالألمانية باسمه ، فنظر مشدوهًا ليجد زميله (أوتو) .. كان يربط عصابة دامية حول رأسه ، وذراعه قد علقت إلى عنقه بخرقة ما .. لقد كان حيًا ..

تعانقا .. وسرعان ما أدرك أن هناك آخرين من رفاقه .. كلهم من الفصيلة السادسة ..

كانوا في أسوأ حال ، لكنهم أحياء يرزقون ..

كان عددهم حوالي عشرين شابًا .. بعضهم يعرفه جيدًا ، وبعضهم يعرفه وجهًا .. لقد هلك حوالي الثمانين جنديًا .. لكن الباقين ظلوا وسط الثلوج ينزفون ويئنون ..

ووجدهم (نجروزو) ورفاقه وهم يقومون بعملية

الدفن ، لذا أنقذوهم وجاءوا بهم فرادى إلى هذا المخبأ الذي لا يعرفه سوى قليلين ..

وهكذا التأم شمل من بقي حيًا من أفراد الفصيلة .

لكنهم ـ وهذا طبيعي ـ كانوا أبعد ما يكونون عن الشعور بالراحة والسرور .. لقد حدث شرخ في سعادتهم الصبوية ، وبدا أن النظرة في أعينهم لن تعود أبدًا كما كانت .

لو دقق مدقق في الأمر ، لقال لك إن هؤلاء الفتيان ماتوا حقًا في أثناء الغارة السوفيتية ، وما بعد هذا تحصيل حاصل .. إنهم عشرون من (الزومبي) أو الموتى الأحياء ، ينتظرون بلا طائل في قبو كنيسة رومانية ..

★ ★ ★

وكذا مضت أيام مملة حقًا في هذا القبو ..

لم يكن الخروج للشمس مسموحًا به ، وفاحت رائحة جروحهم التي تعفنت من العناية البدائية والبعد عن التهوية ، لكن الحسناء الشابة (ماريانا) كانت تبذل ما بوسعها ..

لم تتبادل مع (هانس) سوى بضع كلمات من طراز (أهلاً ـ شكرًا ـ حالاً ـ لا تتحرك) وكلها بالألمانية ، لكن نظراتها قالت مقالات كاملة في الحب ،

وكان (هانس) غض الإهاب لا يملك لسان حكيم . لكنه أدرك أن عيني المرأة تتحدثان بفصاحة لا يملكها لسانها .. هذا هو درسه الأول في النساء وسيتذكره لو بقي حياً ..

علمته عيناها أن روحيهما على نفس الموجة .. وأنها تشعر نحوه بما يشعر به نحوها .. والرجل ضعيف جداً تجاه الأنثى التي ترعاه بعناية .. لهذا يقع كثيرون في هوى الممرضات اللواتي يرعينهم ..

ربما قال (أوتو) دعابة ثقيلة أو دعابتين عن الفتاة ، لكن (هانس) كان يؤثر الصمت ويبتلع ضيقه .. فليس الوقت ملائماً للشجار مع رفيقه من أجل فتاة لا يعرف عنها إلا لماماً ..

كم مضى عليهم في هذه الحياة ؟

لو قلنا أسبوعين لكنا أقرب إلى الدقة ..

* * *

ـ « لنا هنا أسبوعان .. »

قال (هانس) شارداً وهو يزدرد الخبز واللحم المقدد ـ جرايته اليومية ـ اللذين يحضرهما القس ..

قال (أوتو) وهو يعيد تضميد ذراعه :

ـ « صبراً .. إن السوفييت لن يظلوا هنا للأبد ..

سيتركون حامية من عشرة جنود ثم يرحلون .. »

وصفر حين رأى ذراعه قد تورمت حتى صارت أقرب لفخذ منها إلى ذراع .. فخذ عملاقة زرقاء اللون ..

قال (هانس) متجاهلاً التحديق في الذراع قدر إمكانه :

ـ « إنني أتساءل .. »

ـ « عم ؟ »

ـ « عن المبرر الذي يجعل هؤلاء القوم يتجشمون كل هذه الصعاب من أجلنا .. الحرب ليست حربهم ، ونحن بالنسبة لهم محتلون مثلنا مثل السوفييت .. فما سر هذا الاهتمام وهذه الحفاوة ؟ »

بصق (أوتو) وأشعل بذراعه السليمة لفافة تبغ من نوع رديء :

ـ « تفو .. هناك أناس يحتفظون بآدميتهم برغم هذه الحرب .. »

ـ « إلى درجة المخاطرة بحياتهم ؟ »

ـ « ماذا تريد قوله ؟ إنهم لن يطهونا ويأكلونا على ما أظن .. »

ـ « بدأت أشك في هذا .. »

كانت محادثة مهمة وفي موضعها ..

لكن ـ للأسف ـ لم يكتب لها أن تستكمل .. لقد

اجهضها (أوتو) بسخريته ، وكان (هانس) يثق بآراء وحكمة الفتى الذى يكبره عاماً أو أكثر .. هذا يجعله على قدر هائل من الحكمة وفهم الكون ..

كانت محادثة مهمة ..

لكنها انتهت ولم تدر بينهما ثانية ..

★ ★ ★

فقط حين تأخر الطعام بدءوا يشعرون بالقلق ..

لقد مضى يومان أو أكثر دون أن يجىء القس بالطعام ، أو يسمعوا صوت خطوات (ماريانا) الرقيق .. والمصابيح مات أكثرها ..

لقد حدث شىء ما هناك بالخارج ..

قال (أوتو) للعشرين صبياً حوله :

- « يا شباب .. قد حدث شىء ما ، وعلينا أن نخرج لنلقى نظرة .. »

وانتخب اثنين تسمح حالتهما الصحية بالخروج .. وأمرهما أن يغادرا القبو لكن لا يتهورا أو يتماديا فى الابتعاد ..

وجاء الليل ..

تأهب الكشافان النازيان لمغادرة القبو ..

لكنهما عادا بعد دقيقة ليعلنا الخبر الرهيب :

- « الباب موصد بإحكام ! »

- « موصد ؟ كيف ؟ »

- « هذه هى الحقيقة .. »

★ ★ ★

ركضوا جميعاً يصعدون فى الدرجات ، وقرعوا الباب كثيراً دون جدوى .. لو كانوا يملكون القدرة على الإبصار عبر الجدران - وهى القدرة التى يملكها قراء هذه الرواية - لاستطاعوا أن يروا المدخل .. تحت تمثال العذراء البيزنطى ..

كانت هناك دبابة سوفييتية تقف هناك ، وقد استقر أحد جنازيرها على الباب .. ولم يكن طاقمها فيها ..

وكانت لديها أوامر صارمة : ستنتظر ها هنا أسبوعاً أو أسبوعين .. حتى يموت هؤلاء جوعاً وظمأً كالفئران ..

ولم يكونوا يعرفون أن سرهم تسرب ، وأن القس و(كاراجيانى) قد تم إعدامهما منذ ثلاثة أيام فى ساحة الكنيسة ، وأن عمدة القرية كان يعرف جيداً أنه ما من مخرج آخر لهذا القبو ..

لم يكونوا يعرفون ..

وكانت هذه رحمة من الله (العلى القدير) ..

★ ★ ★

٨ ـ فلنعد إلى القرية !

من مخبئنا وراء الأشجار ، كان بوسعنا أن نرى بصعوبة العشرين جنديا وقد وقفوا حول السيارة الهامدة ..

كيف عرفت أنهم عشرون ؟ لا أدرى بالضبط ، فعد الناس مستحيل من مسافة كهذه .. إن هو إلا انطباع عام بالأمر ..

كانوا يتفحصونها .. يدورون حولها .. كما يتفحص القط قنفذا يراه لأول مرة ..

مرت بضع دقائق من التوتر ، ثم .. كأنما أجروا بروفة هذا العمل مرارا من قبل ؛ انهالوا عليها ضربا وركلا ..

طاخ ! طاخ ! كلانج !

ـ « سيارتى ! »

همس (جوستاف) بهذا وتوتر .. آه ! هذه هى مشكلة الناس الدائمة : إنهم يخافون على ممتلكاتهم

أكثر من اللازم .. إلى حد التضحية بحياتهم ذاتها .
إن تحطيم السيارة شيء سخيف .. لكن الموت شيء أسخف ..

قلت له هامسا :

ـ « صه يا أحمق ! وإلا لحقت بها .. »

وكان الحفل قد صار صاخبا حقا .. فهناك من يمزق الإطارات بالسونكى ، ومن يهشم الزجاج بقطعة حجر ، ومن يقف فوق السيارة ليرقص كما سيفعل (ترافولتا) بعد عشرة أعوام فى فيلم (بريانتين) ..

وسمعت شهقات (جوستاف) .. لكنه آثر السلامة كما هو واضح

قلت له وأنا أدس القرص إياه تحت لسانى :

ـ « أعتقد أنهم سينهمكون لفترة .. تعال نهرع إلى القرية .. »

وتحت ستار الظلام ابتعدنا عن مسرح الجريمة ..

رحنا نركض لاهثين ، وهو ركض أقرب إلى المشى الحثيث بالنسبة للياقتنا البدنية .. لكنى ظللت آمل أن تكون لياقة الأشباح البدنية أسوأ منا

* * *



فهناك من يمزق الإطارات بالسونكى ، ومن يهشم الزجاج بقطعة حجر ، ومن يقف فوق السيارة ليرقص كما سيفعل (ترافولتا) ..

وصلنا القرية النائمة أخيرا ..

سألت (جوستاف) وأنا أستجمع أنفاسى :

ـ « هل تذكر مكان دار العمدة ؟ »

ـ « ليس فى هذا الظلام .. لكننا سنسأل .. »

وفى تؤدة ـ وهو يفح كالأفعى ـ اتجه إلى أقرب الأبواب منا وقرعه ، وهنا لاحظت على عتبة الباب رغيفين من الخبز الرومانى الشبيه بالقرع وجوارهما زجاجة نصف ملأى ..

تذكرت مشهدا مماثلا فى (كرايوفسكا) منذ أعوام طويلة .. كان الباب موصدا وأمامه صليب هائل الحجم ، وكانوا خائفين من المذءوب فى تلك المرة(*) .. لهذا عرفت ما سيحدث هذه المرة دون جهد ..

* * *

راح (جوستاف) يتحدث بالرومانية فى حماس كمن يدافع عن قضية خاسرة ، على حين دوى صوت غليظ لرجل من وراء الباب ..

دعك من الجدال يا (جوستاف) وتعال .. إن الرجل خائف ، وأخطر الرجال هم الخائفون .. إنهم ... بوم !

(*) أسطورة الرجل الذئب : الكتيب الأول صفحة ٨١

كان صوت الطلقة كافيا جدا .. كأنه كلمة (لا) كبيرة مقنعة صاح بها الرجل من وراء الباب .. وتراجع (جوستاف) مذعورا ..

لحق بي وهو ينظر للوراء غير مصدق أنه نجا .. فقلت له :

ـ « كانت طلقة تحذيرية لا أكثر .. طبعا ستؤكد لي أن فلاحي (مولدافيا) كرام ، ولا يتصرفون بهذه الطريقة أبدا .. »

بصق في اشمئزاز ونظر إلى الباب الموصد وقال :

ـ « بالعكس .. إنهم مشهورون بالبخل في البلاد كلها .. لكنهم لا يطلقون النار على عابري السبيل .. »

ـ « إن الخائف يملك عذرا مقنعا .. »

وتراجعنا ..

ورحنا نرمق الأبواب التي نمر عليها ، والتي كانت جميعا غافية في ضوء المصابيح الخافت ..

الحق أنه لا يوجد باب لم يوضع عليه طعام وشراب ..

لا يوجد باب يقبل أن ينفتح لنا ..

إننا لفي مأزق حقيقي ..

* * *

كان تشابه ما يحدث لنا مع ما حدث في قصة الرجل الذئب إياها ، يحدث خللا ما في توازني النفسي .. كأنها صورة من ظاهرة Deja-Vu الشهيرة مع فارق واحد : نحن عشنا هذه الأحداث من قبل حقا ..

كنا نشق طريقنا في شوارع القرية المظلمة ، شاعرين بأننا خرزتان في متاهة من التي يلعب بها الأطفال .. إن هذه القرى اللعينة متشابهة إلى حد لا يصدق ..

قلت لـ (جوستاف) لاهثا :

ـ « أرى أن ننتظر جوار جدار حتى تشرق الشمس .. و ... »

رفع إصبعه إلى شفتيه بحركة مسرحية ، وهمس :

ـ « أنصت !! »

كان هناك صوت .. حقا كان هناك صوت ..

صوت نشيد ألماني يتردد من حناجر شابة .. شابة حتى لو كان عمرها أربعين عاما أو أكثر ..

وكان صوت الخطوات العسكرية يتعالى فوق أرضية الشارع ..

ـ « إنهم قادمون ! »

ـ « الويل ! »

ـ « لكن من أين ؟ »

حقًا من أين ؟ من هذا الشارع المظلم هناك ؟ أم من هذا الزقاق الضيق ؟ أم من الناحية اليسرى ؟ لا يهم .. إن الهرب فى أى اتجاه سيجعلنا نصطدم بهم ..

تذكرت ـ فى سخرية مريرة ـ ما يحدث فى الرسوم المتحركة للقط (توم) : صخرة تهوى من حالق نحوه .. يفرّ يمينًا ثم يسارًا .. ثم يكفّ عن المحاولة ويقف يدخّن سيجارًا بانتظار سقوطها فوقه .. فهو يعرف جيدًا ألا جدوى .. يعرف أن المكان الذى سيختاره هو المكان المحتوم لسقوط الصخرة ..

إذن لا جدوى من الهرب ..

الغناء يتعالى .. ويتعالى ..

* * *

« ويقال إن لقاءهم ليس تجربة سارة ، لأن عدد الموتى ليلاً فى القرى المجاورة قد صار أكثر من اللازم .. »

* * *

« يموتون بالسونكى .. لم تكن هناك طلقات رصاص ، ولم يكن هناك امتصاص دماء إذا كنت فى ذلك تفكر .. »

* * *

ـ « بست ! »

سمعنا الـ (بست) هذه فالتفتنا للوراء مذعورين ..

كان هناك باب .. باب موارب يشع ضوءًا مطمئنًا .. ومن فرجته كنا نرى رأسًا مظلمًا يرتدى الإيشارب .. إنها امرأة ..

لم نجد مجالاً واسعًا للاختيار ، فهرعنا ندخل كالجرذان الدار الوحيدة التى فتح بابها لنا .. وفى الداخل كان الدفء ، لا بأس به ، ومعه الشعور بالأمن والراحة .. فلو كنت فى حالة ذهنية أصفى لتزوجت هذه المرأة فورًا قبل أن أرى وجهها أو ......

(ماريانا كاراجيالى) ! هل تذكرونها ؟ الشاهدة التى كانت تجلس فى دار العمدة وتستعمل طلاء الأظفار الرخيص إياه ..

إن المصادفات لا تنتهى فى هذه الحياة ..

كانت هناك منضدة عتيقة فى وسط القاعة ، دعتنا

بإشارة من يدها إلى الجلوس إليها .. وراحت تتبادل حديثًا مع (جوستاف) ..

كانت ترتدى ذات الثياب التى كانت ترتديها عند العمدة ، لكن شعرها مبعثر تحت الإيشارب ، وقد غسلت وجهها من كل الأصباغ الفظيعة التى كانت تضعها ظهرا ..

صحيح أنها بدت فى سنها الحقيقية ، وظهرت التجاعيد الحقيقية التى تركتها الحرب مع الزمن على بشرتها ، لكنها بدت أدنى إلى الجمال إلى حد ما .. ولم أعد أراها كمحارب من (الأباش) ذاهب لحرق معسكر الرجل الأبيض ..

وزادنى راحة هنا أنها تخلت عن ضحكتها المائعة ، وأسلوبها الهستيرى الاستعراضى فى الكلام .. كانت تتحدث برصانة وتعقل ..

وأدركت أن ما تقوله مهم حقًا ..

* * *

بعد دقائق سمعنا الطرقات العنيفة على الباب ..

تبادلنا النظرات ، لكننا ظللنا جالسين حيث نحن بلا حراك ..

تزايد صوت الطرقات علوا ، وشعرت بأن الباب يوشك على الخروج من مفصلاته .. لكن المرأة ظلت جالسة كأنما لا تسمع شيئا ..

- « فراو ! كوم ! »

ومزيد من الطرقات العاتية ..

تحفز (جوستاف) لكن يد المرأة ضغطت على ذراعه بحزم .. بمعنى لا تنهض .. إنهم سينصرفون بعد قليل ..

(فراو) معناها بالألمانية (امرأة) .. و (كوم) معناها (تعالى) .. تعالى يا امرأة .. أى أن هؤلاء الجنود يعرفون حقًا من يسكن الدار .. إذن هى ليست طرقات عشوائية على أى باب

ولكن هل يعرفون أننا هنا معها ؟!

* * *

٩ - ماريانا كاراجيالى ..

(معذرة لتكرار اسم الفصل .. لكنى لا أجد عنواناً مناسباً أكثر)

كنا سبعة أو أكثر ..

وكانت عملية شاقة مرهقة لكنها ضرورية ..

هناك وقفنا ـ ومعنا القس والعمدة ـ فى شمس الصباح البهيجة ، و (نجروزو) المذعور بصلعته التى تلتمع فى الضوء يعد الخطوات ، حتى وصل إلى الموضع الذى لم ينسه منذ أكثر من ربع قرن ..

سألت (جوستاف) وأنا أتحسس الرفش الذى أحمله :

ـ « هل العمق كبير ؟ »

قال وهو يعد رفشه ، ويبصق فى كفه كأى حطاب محترف :

ـ « لا أظن .. لقد كان الجليد سميكا وقتها ..

أما الآن فلا يوجد جليد كما ترى .. ربما كانوا على عمق نصف متر أو أكثر قليلا .. »

ثم صاح بالرومانية فى المحيطين بنا كى نبدأ ..

وسرعان ما بدأنا الحفر ..

* * *

كما هو واضح للقارئ لم يحدث شىء ذو بال فى تلك الأمسية ..

لقد استمرت الطرقات على الباب و (فرام كوم) لبضع دقائق ، ثم سمعنا صوت الخطوات يبتعد وساد الهدوء ..

لكننى أدركت أن المرأة مذعورة حقًا ، ترتجف كورقة من فرط انفعال كاد يقتلها .. كلنا مذعورون لكنها أكثرنا .. وأثار هذا دهشتى لأنها ـ حتمًا ـ قد اعتادت تلكم الزيارات الليلية أكثر منا ..

سألت (جوستاف) وقد جاء دورى لأفهم :

ـ « هل فتحت المرأة بابها لنا بالصدفة ؟ »

ـ « بل رأتنا من خصاص النافذة ، وأدركت أننا فى مأزق .. »

ـ « وفيم كنتما تتحدثان طيلة الوقت ؟ »

ابتسم بخبث ، وقال :

ـ « التتار ؟ »

ـ « كف عن المزاح السخيف واوضح .. »

كانت المرأة قد أحضرت لنا إناء ساخنا به قهوة .. فلم يكن النوم واردا على كل حال . كما أحضرت لنا إناء به ماء دافئ لو أردنا غسل أقدامنا ووجوهنا ..

قال (جوستاف) وهو يصب بعض القهوة لنفسه ، فتفعم رائحتها الزكية أنفينا :

ـ « قالت إن هؤلاء الجنود يحبون دق بابها بالذات .. »

ـ « هذا غريب .. والسبب ؟ »

ـ « لم تفسر .. لكن المؤكد أنهم سيدقون باب الأرملة (روكساندرا) حين يجدون أبواب القرية كلها موصدة .. يبدو أنهم يشعرون بوجود الأرامل .. »

ـ « ولماذا لا يفعلون هذا من البداية ؟ »

ـ « يبدو أنهم مازالوا يأملون في أن يفقد أحد القرويين عقله ، ويدعهم يدخلون داره .. ولربما هم يستمتعون بإثارة فزع سكان القرية .. »

ـ « ولكن هذه الزيارة لن تتكرر غدا .. سيكونون في قرية أخرى .. »

ـ « من يدرى ؟ ليس لأداء هؤلاء القوم قاعدة ثابتة .. قليلة هي الأشباح المنظمة .. »

صببت لنفسي بعض القهوة ، وسألته :

ـ « ولكن هل هم أشباح أم (زومبي) ؟ لو كانوا أشباحا فهم لا يملكون أصابع مبتورة يبعثرونها في كل صوب . ولو كانوا (زومبي) فإنني أرفض هذه الفكرة دينيا .. الجسد لا يغادر قبره إلا يوم القيامة .. »

نظر لي في حيرة .. إن (جوستاف) متدين وإن كان يخفي هذا في بلد لا يعتبر التدين فيه علامة صحية .. وهو لم يصل لما وصل إليه إلا لأنه تظاهر بأنه يعتنق المادية الجدلية ، لكنه في أعماقه كان متدينا حقا لا يقبل فكرة (الزومبي) من أساسها ..

مد يده في جيبه وأخرج شيئين ..

نادى الأرملة وناولها الصليب الحديدي : فتأملته بضع لحظات ثم هزت رأسها بمعنى لا .. هي لا تعرف مصدره ..

نظر لي وابتسم ، وقال وهو يعبث في يده المطبقة :

ـ « حان وقت الصراخ الهستيري .. إن لم تكن قد رأيت سلوك امرأة يوضع إصبع مبتور في يدها فلا تدع المشهد يفوتك ! »

ودون كلمة أخرى دس الشيء الرهيب فى كفها ..

كان رد فعلها خارقا للعادة كما توقع (جوستاف) ..

بالواقع لم تعط أى رد فعل على الإطلاق كأنما ما فى كفها قلم أو مفتاح ..

تأملته لحظة ثم أعادته لـ (جوستاف) ، وهزت رأسها وقالت بضع كلمات بالرومانية ، فى حياد علمى لا يمكن تصديقه ..

نظر لى بخيبة أمل ، فقلت له وأنا أتأمل اللون الأزرق فى باطن الإبهام :

ـ « هستيريا فعلا ! يبد أن نساءكم قويات الأعصاب حقا .. »

قال وهو يعيد الشيء إلى جيبه مرتبكا :

ـ « غريب حقا .. لقد تأملت الشيء ثم قالت إنها لم تر مثله ، وإنه ليس من عادة جنود الفصيلة السادسة أن يتركوا قطعا منهم فى أى مكان .. »

* * *

كان أول رفش يجد شيئا هو رفش (جوستاف) ..

جثا الصحفى الرومانى الأفاق على ركبتيه ، وراح يعبث فى التربة حتى وجد ما اصطدم به .. نهض وأمام

عيوننا رفع الجمجمة التى كساها الغبار .. وحتى من مكانى ومع ضعف بصرى استطعت أن أرى فتحة دخول الرصاصة فى العظمة الجدارية .. وتذكرت مهرج (هاملت) فى يد حفار القبور ..

ـ « هذا هو الأول .. »

وحمل الجمجمة ووضعها على ملاءة فرشناها فوق العشب ، ثم عاد يواصل عمله .. وكانت الجمجمة الثانية من نصيب (أيودو) شرطى القرية ، أما الثالثة فكانت من نصيبى ، وكانت ملساء تماما .. هذا واحد لم يمت برصاصة فى رأسه ..

سأل (جوستاف) وهو يبصق الغبار الذى ابتلعه :

ـ « هل أنت متأكد أنهم نفس الأشخاص ؟ »

تأملت عظمة زند وجدتها وقلت :

ـ « إن الخط الكردوسى (*) موجود .. ولم يحدث التحام ، أى أن عمر هذه الجثث ـ أو ما وجدناه ـ يقل عن ثمانية عشر عاما لو كانوا ذكورا ، أو ستة عشر عاما لو كانوا إناثا .. »

ـ « وهذه الجماجم ذكرية بالتأكيد ؟ »

(*) Epiphyseal line

قلت في كبرياء وأنا أكاد لا أرى شيئا من الغبار على عويناتي :

ـ « هذا عملي .. هل نسيت مهنتي الأصلية ؟ »

ابتسم بخبث وواصل ما يقوم به مغمغما :

ـ « أحيانا أنسى .. إن شخصية (طارد الأشباح) تتضخم فيك يوما فيوما حتى أوشكت على خنق الطبيب ! »

وواصلنا الحفر مبتلعين تعليقاتنا المسمومة ..

* * *

كنا جالسين أنا و (جوستاف) طينة النيل على المنضدة نتبادل النظرات ..

لم يكن واحد منا راغبا في الخروج حتى ولو كان هذا إلى دار العمدة ؛ فقد فقدنا حماستنا .. وبدت لنا القرية كلها كابوسا من كوابيس (كافكا) المظلمة ..

أما الأرملة (كاراجياني) فكانت قد حاولت أن تظل ساهرة بعض الوقت . ثم لم تلبث أن فقدت وضعها العمودي على الأريكة وغدت أقرب إلى اتخاذ وضع أفقي .. وتعالى صوت غطيطها ..

كنا قد جرعنا الكثير من أقداح القهوة . مع سيجار

(جوستاف) الأرجنتيني اللعين الذي تذكرك رائحته برائحة (النابالم) حتى لو لم تشم رائحته .. وبدا من العسير أن ننام حتى لو أردنا ذلك ..

كنت مشغولا بعد الضربات الزائدة في نبضي ، والتساؤل عما إذا كانت بسبب الإفراط في القهوة أم بسبب اقتراب قلبي من الخراب النهائي ؛ حين .. حين .....

حين نهضت المرأة فجأة من نومها صارخة في هستيريا ..

وثب (جوستاف) من مكانه على المنضدة نحوها ليهدئها بعبارات من قبيل (نحن هنا ـ لا تقلقي ـ أنت بخير) بالرومانتية طبعا ..

لكن هياجها كان عاتيا ، واحتاج الأمر إلى ثلاث دقائق كاملة حتى تعود لروعها ، فتهدأ .. فتغرق في البكاء الحارق الحار ..

هذه المرأة ـ قلت لنفسي ـ تداري سرا رهيبا ..

سرا يثقل على ضميرها كالجاثوم ..

* * *



وثب (جوستاف) من مكانه على المنضدة نحوها ليهدئها بعبارات من قبيل (نحن هنا ـ لا تقلقى ـ أنت بخير) بالرومانية طبعًا ..

كان هذا ليلة أمس ..

أما صباح اليوم فقد بدا بعيدا جدًا وباهتا ..

وكنا قد كدسنا ستين ونيف جمجمة فوق الملاءة ، وقال القس صغير السن الذى لم يحضر المذبحة عام ١٩٤٣ :

- « أيتها العذراء المقدسة ! كل هذا فى ليلة عيد الميلاد ! »

قال (جوستاف) وهو يستخرج جمجمة أخرى :

- « إنها الحرب يا أبت .. حيث يغدو احترام الروح البشرية نوعًا من النفاق .. على كل حال يمكنك أن تدفن الأشلاء التى تجدها دفنة محترمة لائقة بها .. إن الشيوعيين لن يرفضوا بعد كل هذا الزمن ! »

قال القس :

- « لكنكم تكتفون باستخراج الجماجم .. »

- « هذه هى طريقة التعداد الوحيدة المضمونة .. كما كان الجنود فى الحروب القديمة يحضرون لقائدهم أنوف قتلاهم كى يدفع لهم مكافآتهم .. ثم إننا لو جمعنا العظام كلها لاحتجنا إلى عدة أسابيع .. »

بالطبع دارت المحادثة بالرومانية ، فلم أفهم فحواها

الا حين ترجمها لى (جوستاف) . وكنت منهكا لكنى صارحته برأيى فى فظاظة مع رجل الدين المسكين الذى لا يفهم المزاح ..

بدا من الواضح أننا لن نجد المزيد من الجماجم ..

لقد استمررنا فى الحفر فى أماكن عدة لمدة ساعة أخرى - أعنى طبعا أنهم استمروا على حين رحت أتأمل الجماجم فى اهتمام طبى خطير - وأخيرا بدا من الواضح أنه لا توجد بقايا أخرى ..

نظرنا إلى (نجروزو) متسائلين ..

سأله (جوستاف) كما قال لى بعد ذلك :

- « هل هذا كل شىء ؟ »

ارتجفت الشفة السفلى لـ (نجروزو) وقال وهو يجفف عرقه :

- « نعم .. نعم .. لا يوجد موضع آخر .. »

- « إن العدد الذى وجدناه لا يزيد على خمس وستين جمجمة .. وأنتم جميعا تقولون إن الفصيلة السادسة كان قد بقى منها مائة جندى .. »

- « إن .. إن .. كل هذه الأرقام تقريبية .. »

- « حسن .. لنقل إننا فقدنا خمس جماجم ، وأنكم

حسبتم تسعين جنديا نازيا مائة .. هذا يجعل لدينا عجزا فى العهدة مقداره عشرون جنديا .. أين هم إذن ؟ »

ثم التفت إلى العمدة يسأله :

- « هل تم استخراج أية جثث بعد الحرب ؟ هل جاء رجال من الصليب الأحمر ها هنا ؟ »

مط العمدة شفتيه ، وقال وهو يصلح وضع قبعته :

- « لا .. إن شيئا كهذا لا يتم دون أن يعلم به الجميع .. »

كنا واقفين مغبرين مشعثين غارقين فى العرق ، نلتف حول ملاءة تكدست فوقها ستون جمجمة أو أكثر ، نتبادل النظرات عاجزين عن الفهم .. وأمامنا المرج الذى تحول إلى غربال من كثرة ما فيه من حفر ..

وهمس لى (جوستاف) وهو يعيد كمى قميصه إلى أسفل :

- « يبدو أن (ماريانا كاراجيالى) كانت محقة فيما اقترحته علينا صباح اليوم .. لقد بدأت أفهم ما حدث .. »

* * *

١٠ - ميخائيل نجروزو ..

(أكرر الاعتذار عن تكرار عنوان الفصل .. لكنه .. سترون .. ملائم جداً)

واقفًا فى فخر وانتشاء كما يفعل (هركيول بوارو) فى آخر عشرين صفحة من أية رواية لـ (أجاثا كريستى) ، حين يقرر كشف اسم قاتل السير (إدوارد) ؛ راح (جوستاف) يقلب عينيه بين وجوهنا حيث جلسنا فى دار العمدة .. وشعرت بالحمض يتعالى فى صدرى .. ترى ماذا ينوى قوله ؟

كان (جوستاف) يقول كل عبارة بالرومانية ثم يترجمها لى بالإنجليزية ؛ لذا سأفترض أن القارئ يعرف هذا ضمنًا منعًا للتكرار ..

قال (جوستاف) وهو يمشى بتؤدة ويداه فى جيبه :

- « أمس زرت وصديقى المصرى دار الأرملة (روكساندرا) .. كانت لدينا أسئلة لكن لا إجابات ..

فالعجوز الطيبة القعيدة لا تعرف أى شىء عن زوارها الليليين .. لكننا وجدنا شيئين فى المكان الذى يجتمع فيه أولئك الجنود .. »

وطوّح للعمدة بالصليب الحديدى ، ثم طوّح لـ (نجروزو) بالإصبع المبتور ..

أما الأول فراح يتفحص الصليب فى اهتمام ووقور .. وأما الآخر فأطلق صرخة كصرخة مراهقة مشى فأر على قدمها ، وطوّح الشىء بدوره ليصطدم بحاجز المدفأة ويسقط على الأرض ..

سخيف هذا الأسلوب يا (جوستاف) .. إنك تتصرف كطفل مشاغب يصر على إلقاء ضفدعة فى وجوه البنات ..

واصل (جوستاف) كلامه :

- « ما رأيك يا سيدى العمدة ؟ »

ازداد شارب العمدة كثافة كناية عن التفكير ، وقال فى تؤدة :

- « هذا ؟ إنه خاص بالقوات البرية النازية .. »

صاح (جوستاف) فى انتصار :

- « فى شمال إفريقيا ! إنه خاص بقوات (روميل) ..

لكنه ـ على قدر علمى ـ لم يكن جزءاً من أزياء القوات البرية فى أوروبا الشرقية . وبالتأكيد لم يكن أحد من الفصيلة السادسة يرتديه . . »

ثم أشار إلى الإصبع الملقى على الأرض وقال :

ـ « وهذا ؟ إن الأشباح لا تترك أطرافاً مبتورة . و(الزومبى) لا وجود لهم . . هذا معروف . . إذن ما معنى هذا ؟ معناه وجود تناقض واضح . هدفه تدعيم الأكذوبة . . صليب حديدى لا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) من أين جاء . . وإصبع منزوع من جثة . . كل هذا فى محاولة لإقناع القرويين بأن الفصيلة السادسة فصيلة أشباح عائدة من قبورها . . »

كان كلامه قد أثار اهتمامى . . لقد اعتقدت أن أستخف بـ (جوستاف) . وأعتبره رجلاً لطيفاً يملك ذكاء البراغيث . . هو مثقف جامح الآراء لكنى لا أعتبره محللاً بهذه البراعة . .

واصل (جوستاف) كلامه :

ـ « فى رحلة العودة . . وجدنا أن خرطوم البنزين فى سيارتى مثقوب ـ بفعل فاعل طبعاً ـ واضطررنا إلى العودة راجلين إلى القرية . . قضينا ليلتنا عند

أرملة أخرى هى (ماريانا كاراجيالى) . التى تفضل الجنود مشكورين بقرع بابها ليلاً لإرهابها . .

« إن (ماريانا) امرأة طيبة . . صحيح أن حالتها العادية تدهورت تماماً . . فقد اغتال السوفييت أباها . وبعد هذا مات زوجها . . ولم يكن لديها دخل تعيش منه . . إن هذه الأشياء تحدث . . وعليكم قبل أن تحاسبوا المرأة على سلوكها أن تحاسبوا جيرانها الذين ـ ببساطة ـ تركوها تموت جوعاً . . إننى ـ و د . (رفعت) معى فى هذا ـ أرى أنها فى ظروف أفضل كانت ستغدو إنسانة محترمة طيبة . . »

فى فتور قال العمدة وقد ضايقه تدخلنا فى شئون القرية الداخلية :

ـ « فلنعد للموضوع من فضلك . . »

ـ « ليكن . . لقد كانت (ماريانا) غامضة جداً كأنما تخشى المزيد من الكلام . . قالت لى عبارتين مهمتين : (نجروزو) يعرف كل شىء . . ثم . . انبشوا قبور النازيين وعدوا الجثث . .

« كان هذا هو ما قالته ونحن نتأهب لمغادرة دارها . ولم تفصح عن شىء آخر . . وما كانت حالتها لتسمح بالإفصاح . .

« لهذا - تذكر - جئتك يا سيدى العمدة ، وطلبت أن تفتش عن جثث الصبية النازيين .. وقد بدا لك الطلب غريبا ، لكنك وافقت على مضض ..

« لقد انتهى الحفر ، ويمكن بكل إخلاص أن نعلن للعالم أن هناك عشرين صبيًا نازيًا غير موجودين فى قبرهم الجماعي .. فأين هم ؟ »

ثم صمت برهة كأنما ينعم بترقب الجالسين .. كان أداؤه المسرحى يفوق خير الممثلين الشكسبيريين ، فلم يكن ينقصنا سوى خلفية موسيقية متوجسة ..

قال وهو يتأمل الصليب الحديدى بين أصابعه :

- « ثمة واحد فقط يمكنه أن يتلف خرطوم البنزين فى سيارتى حين تركناها على باب (روكساندرا) وكان معنا هناك .. إن وضع الإصبع والصليب الحديدى فى منزل الأرملة ليس عسيرا على أى شخص ، لأن الدار مشاع للجميع .. لكن الخرطوم يدل بشكل قوى على .. (نجروزو) .. »

كالعادة فى قصص (أجاثاكرستى) نهض (نجروزو) صارخا محتجا ، وقد زاده الحماس بشاعة .. وتطاير لعابه فى كل صوب وهو يردد :

- « أنت مجنون ! لا مصلحة لى فى ..... »

لكن (جوستاف) - مثل (بوارو) - ظل يرمقه فى برود ، ويداه فى جيبيه ، وشبح ابتسامة على ثغره المكتنز ..

أخيرا قال :

- « أنا مؤمن أن العشرين نازيًا ما زالوا أحياء ! وأنت تدعم لدى القرويين أسطورة الفصيلة السادسة كى يغرقوا فى الذعر ، ولا يلقوا أسئلة كثيرة .. »

صاح العمدة غير مصدق كل هذا السخف :

- « سيدى ! إن فى هذا شططا كبيرا .. كيف يعيش عشرون نازيًا فى قريتنا نحو ربع قرن دون أن نعرف شيئا عنهم ؟ ولو كان هذا صوابًا لكان عمر الواحد منهم يفوق الأربعين عاما .. فكيف يجمع كل الشهود على أنهم صبية مراهقون ؟ »

وحين وصلتنى الترجمة أخيرا ، قلت ما قاله العمدة وأضفت :

- « ثم ما هى مصلحة (نجروزو) فى هذا ؟ »

- « إن (نجروزو) يملك ميولا نازية .. هذا ما قالته (ماريانا) .. وقد أعدم السوفييت أخاه بعد

الحرب لأنه كان جاسوسا للنازى .. هذا كاف كى يحمل عداء لا ينتهى للشيوعيين .. انتقامه هو أن يرى فصيلة نازية تجوب القرى وتنشر الهلع فى قلوب الفلاحين .. »

سألته وأنا لم أقتنع بعد :

ـ « وكيف يخفيهم ويطعمهم كل هذه الأعوام ؟ »

ـ « هناك أماكن كثيرة تصلح ؛ منها ـ على سبيل المثال ـ قبو الكنيسة .. كل الكنائس العتيقة هنا تضم قبوا مخفيا .. وعلى كل حال لم يعد النازيون متوارين .. بل هم يخرجون ليلا بحثا عن الرزق .. »

هززت رأسى من جديد شاعرا بأن الفكرة عسيرة الهضم .. وقلت :

ـ « مازال تصور هذا عسيرا يا (جوستاف) .. »

ـ « لم لا ؟ لقد وجدوا فى العام الماضى خمسة جنود يابانيين مختبئين ـ منذ الحرب العالمية الأخيرة ـ فى أحراش (الملايو) .. تصور هذا ! تواروا فى الأحراش ربع قرن كى لا يجازفوا بأن يقتلوا أو يؤسروا .. ولم يسمع واحد منهم أن الحرب انتهت أو أن (اليابان) استسلمت[*] .. »

(*) حقيقة .

ـ « أحراش (الملايو) لا قرية رومانسية صغيرة كهذه .. »

لم يترجم (جوستاف) محاورتنا الإنجليزية للآخرين ، لكن الحكمدار (أيودو) تدخل سائلا :

ـ « ولماذا يبدون مراهقين لمن يراهم ؟ »

قال (جوستاف) فى ملل :

ـ « إنهم يظهرون ليلا ، ولا يراهم أحد إلا من بعيد وخلف ستار .. هنا يتدخل الخيال كى يجعلهم كما يريد بالضبط .. أراهن على أن وجوههم ملأى بالتجاعيد وقد شاب شعر أكثرهم .. »

نظر العمدة طويلا إلى (ميخائيل نجروزو) ..

ثم ـ بصوت لا أثر فيه لعاطفة ما ـ سأله :

ـ « ما رأيك فى هذا يا (ميخائيل) ؟ »

* * *

ـ « مخابيل ! هذا كلام مخابيل !

هنا تدخل الحكمدار (أيودو) قائلا :

ـ « ليس كلام مخابيل تماما .. كلنا سمعنا أنك أخفيت بعض النازيين فى قبو الكنيسة أيام الحرب ! »

صاح (جوستاف) فى انتصار :

- « أهـا ! أنت قلت ! وأنا أرجح أنهم ما زالوا أحياء .. »

قلت أنا وقد قررت أن أدلى بدلوى فى بئر الشكوك هذه :

- « لحظة .. هل هذا القبو قابل للفتح ؟ »

قال القس بعد ما تلقى ترجمة سؤالى :

- « أنا حديث عهد بالكنيسة هنا .. لكن - على قدر علمى - لم يفتحه أحد منذ أعدم السوفييت الأب (غريغوريوس) فى عام ١٩٤٤ .. »

- « أعدموه ؟ إن إعدام رجال الدين خطأ فادح يتحاشى المستعمر الوقوع فيه مهما بلغ من توحش وحمق .. حتى (بونابرت) فى (مصر) تجنب ذلك فلم يفعله إلا بعد ثورة (القاهرة) ، كما فعله (مينو) بعد اغتيال (كلوبير) .. »

قال القس :

- « إنهم - السوفييت - اتهموه بمعاونة النازى .. »

- « هذا يدعم نظرية قبو الكنيسة هذه .. »

ثم سألت (جوستاف) فى اهتمام :

- « هل يسمحون لنا برؤية هذا القبو ؟ »

* * *

وقفنا تحت تمثال السيدة (العذراء) الذى يحمل الطابع المميز للفن القوطى .. وكانت النباتات اللولبية التى لا أعرف اسمها بالضبط تحيط بقاعدته ، وعلى الأرض كان العشب سميكا منتفا .. ورسم القوم علامة الصليب ..

قال القس وهو يشير إلى قاعدة التمثال :

- « هنا عند قدمى (العذراء) يوجد باب القبو .. هذا ما قاله لى الآباء .. لكنى لم أحاول فتحه ، ومن حالة النباتات يمكن القول إن هذا الباب لم يفتح منذ عقود .. »

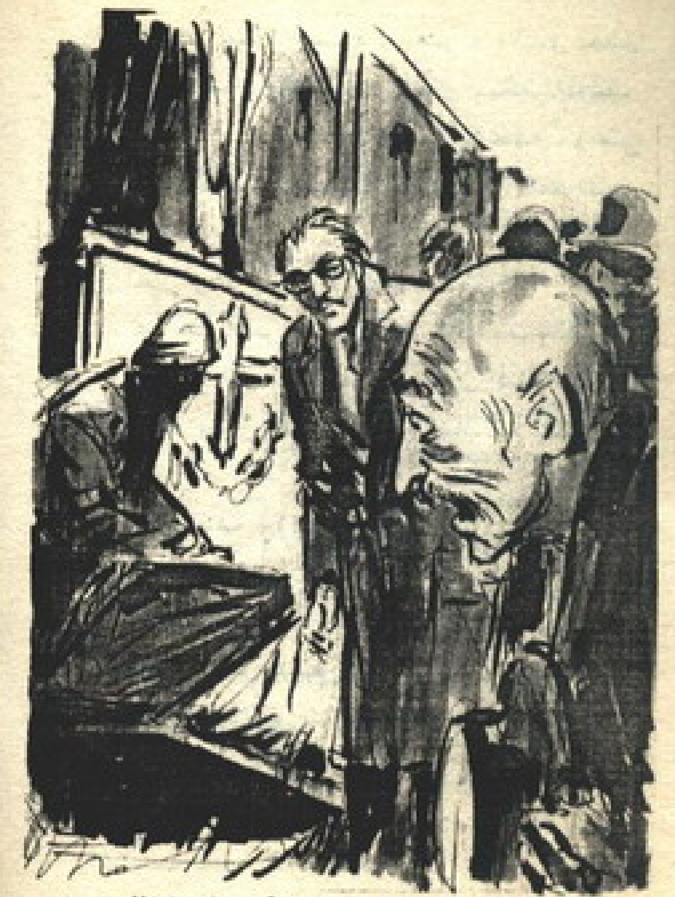
قال (جوستاف) وهو يشمر ذراعيه :

- « ماذا تنتظرون ؟ هلموا نبحث .. »

وللمرة الثانية فى هذا اليوم تعاون الرجال السبعة على الحفر ، ولم يستغرق الأمر طويلا لأننا رأينا حلقة بارزة من الأرض كالحلقة التى تميز آبار الكنوز فى قصص ألف ليلة وليلة ..

- « هلموا نفتحها .. »

واختلست نظرة إلى (نجروزو) صراف القرية المذعور ، فوجدته فى حالة توحى بدنو نوبة قلبية ..



واختلست نظرة إلى (نجروزو) صرّاف القرية المذعور ،
فوجدته فى حالة توحى بدنو نوبة قلبية ..

عيناه جاحظتان حتى صارتا مضغوطتين تماماً إلى زجاج عويناته ، وفمه مفتوح كالأبله ، وقد تدلى منه خيط لعاب لم يشعر به ، وكان وجهه أحمر كتفاحة لبنانية فاخرة .. هذا الرجل سيصاب بالفالج حتماً ، وسيكون ذنبه على رءوسنا ما حيينا ..

صاح العمدة وهو يرمق المدخل :

- « هو هنا إذن ؟ كنت حديث السن فى ذلك الوقت ، وسمعت عنه كثيراً لكنى لم أره قط .. »

وقال (نجروزو) شيئاً ما كأنه يحلم ، فنظر له (جوستاف) لحظة واتسعت عيناه من وراء عويناته ، وغمغم بالإنجليزية : « رباه » !

- « (جوستاف) .. لم كففت عن الترجمة ؟ »

قلتها له لائماً .. فهو لا يكف لحظة عن الترجمة من وإلى الرومانية ، حتى لو أن أحدهم سعل (كح كح !) لقال لى (جوستاف) : إنه يسعل .. لهذا أثار دهشتى صمته إزاء عبارة مهمة كهذه ..

قال (جوستاف) وهو يجثو على ركبته ليفحص المدخل :

- « يقول إن دبابة سوفييتية وقفت ها هنا شهراً كاملاً وقد أراحت أحد جنزيريها على المدخل ! »

ـ « قبل أم بعد دخول النازيين ؟ »

ـ « الأمر واضح يا أحمق .. السوفييت لم يسيطروا على القرية إلا بعد ما توارى النازيون هنا ! »

ـ « يا للهول ! هذا يعني أن ...... »

ـ « لا أدرى ما يعنيه هذا .. »

ـ « يعني أن هؤلاء النازيين دفنوا أحياء .. ومعناه أن نظريتك خاطئة تماما .. »

نظر لى فى ضيق ، ولم يعلق ..

وتعاون الرجال على فتح المدخل ، أما أنا فتراجعت للوراء قليلا .. فالمداخل المهجورة بالنسبة لى لم تعد تعني سوى الوطاويط والفئران والجثث المتعفنة ، وأعتقد أنك توافقني على أنني رأيت ما يكفي لعمر واحد منها ..

ظهر مصباح من مكان ما ـ لا أدرى من أين يأتون بالمصابيح فى القصص ـ وسرعان ما تدلى عبر الفتحة مع رأس أحد الرجال راح ـ نائما على بطنه ـ يتفحص القبو ..

ثم رفع رأسه وهتف :

ـ « لا يوجد شيء على ما أظن ! »

نقل لى (جوستاف) ما قال ، ثم سأل الرجل :

ـ « ولا جثة واحدة ؟ ولا هيكل عظمى يزحف على درجات السلم ؟ »

ـ « لا شيء .. لكني سأهبط الدرجات على كل حال .. »

هنا سمعت صوت الـ (كليك كراك) إياه !

نظرت للوراء فوجدت آخر مشهد توقعته ..

الصراف المذعور يضغط فوهة مسدس إلى صدغه ، ويقول شيئا ما ..

كان ينظر لى بعينين لا تريان ..

ورفعت كفى فى محاولة ساذجة لا معنى لها لقول : لا .. لا تفعل !

لكن ـ كالعادة ـ كنت متأخرا جدا ..

* * *

١١ ـ الأرملة تعرف !

غريبة جدا هى لحظة الموت بسلاح نارى !

كل الضوضاء والمخاوف والأفكار والأحلام تنتهى فى ثانية واحدة ، ويتحول المشهد إلى جسد مكوم على الأرض تنز الدماء من ثقب فى صدغه . على حين تفوح فى الهواء رائحة البارود .. ويقف الجميع غير مصدقين ما حدث ، ولا يجرؤ أحدهم على الدنو أكثر ..

صحت فى (جوستاف) فى هستيريا :

ـ « هيا ! قل ما قاله قبل أن ينتحر ! »

نظر لى فى غباء ، وعاد يتأمل الجثة :

ـ « لقد انتحر البائس ! »

ـ « ماذا قال قبلها ؟ »

ـ « وهل هذا وقته ؟ »

ـ « بل هو الوقت المناسب قبل أن تنساه فى غمار الأحداث ! »

بلل بلسانه شفته السفلى وقال :

ـ « قال : لقد غادروا القبو حقا .. ثم : فلترحمنى السماء .. إننى ملعون ! »

كان الرجال الآن قد التفوا حول الجثة ، وغطى أحدهم الوجه الدامى بمنديله . على حين لم يكف القس عن الصلاة بصوت مرتجف ..

قلت لـ (جوستاف) :

ـ « الأمر واضح .. إن (نجروزو) لم يكن عميلا للنازى بل هو عميل للسوفييت .. لقد أخفى هؤلاء الصبية فى القبو ثم وشى بهم .. عندها كان قرار السوفييت صارما .. ما دام لا يوجد مدخل آخر للقبو فلا داعى لإضاعة الرصاص .. تكفى دبابة سوفييتية واحدة تسد المدخل ، وتمنح هؤلاء الشباب ميتة شنيعة يشيب لهولها الولدان .. »

ـ « إنها مجرد نظرية .. »

ـ « بل هى نظرية تدنو من الحقائق .. لقد أعدم الروس كل من له صلة بإخفاء الصبية النازيين .. فلماذا لم يعدموا (نجروزو) ؟ وما معنى كلامه حين قال : لقد غادروا القبو حقا ؟ معنى هذا أنه كان يتوقع أنهم ما زالوا موتى ينتظرون فى القبو ككل الجثث المهذبة .. »

أشعل (جوستاف) إصبع ديناميت ـ أعنى سيجارا ـ بيد مرتجفة لم تعد ذات ارتباط قوى بجهازه العصبى الإرادى .. وسألنى :

ـ « ولماذا انتحر ؟ »

ـ « لأنه ـ حين فتحنا القبو ـ وجد الدليل المادى على أن هؤلاء الجنود قد غادروا قبرهم ، هم يبحثون عنه طالبين الانتقام .. لقد تأكد من حقيقة الفصيلة السادسة .. ولهذا آثر الانتحار من منطق (بيدى لا بيد عمرو) كما يقول العرب .. »

ـ « هى نظرية جيدة حقا .. »

قلت وأنا أتأمل مدخل القبو :

ـ « بالعكس .. إنها ملأى بالثغرات .. أولا : من هم الجنود الذين يجوبون القرية حقا ؟ ثانيا : من ثقب خرطوم سيارتك ما دام ليس (نجروزو) ؟ ثالثا : الموتى لا يغادرون قبورهم .. فأين ذهب هؤلاء النازيون ؟ رابعا : ما هو دور الأرملة (كاراجيالى) فى هذه القصة ؟ »

نفث الدخان وقال وهو يسعل :

ـ « الأرملة تعرف .. بالتأكيد الأرملة تعرف .. »

* * *

مشينا إلى دار الأرملة ، وكان (جوستاف) يلهث والعرق يغمر جبينه .. فهو لم يعتد المشى بعد ما فقد سيارته الفاخرة ..

قرعنا الباب مرتين أو ثلاثا ، فسمعناها تغنى فى دلال أغنية رومانتية .. ثم فتحت الباب فى مرح لتصطدم بوجهينا الكالحين الملوثين بالغبار والعرق والشكوك .. تبدل مزاجها فورا واكفهر وجهها ..

غمغم (جوستاف) بالإنجليزية :

ـ « إن هاته النسوة لا يرهقن أبدا .. تخيل أنها قضت نفس الليلة المؤرقة مثلنا ومع ذلك هى منتعشة كالينبوع ، بينما أنا وأنت أقرب إلى المومياوات .. »

ـ « لا تنس أنها لم تستخرج ستين جمجمة مثلنا .. »

فيما بعد قال لى (جوستاف) ما دار بينه وبينها . بينما هى تدعونا ـ غير مرحبة ـ إلى داخل دارها ..

أخبرها أن (نجروزو) قد انتحر ، فصرخت قليلا كما تقضى التقاليد وتهالكت وأضاعت نصف ساعة كاملة .. إن القارئ لمحظوظ إذ أريحه من هذه التفاصيل المملة .. وألخص له أهم ما فى الموقف ..

فى النهاية قالت وهى تجرع كوبا من الماء :

- « لقد انتقموا منه .. والآن جاء دوري .. إن العدالة لا تتأخر .. »

نظر لها (جوستاف) وعقد ذراعيه ، وبرصانة قال :

- « يبدو أن وقت الكلام بصراحة قد حان .. ألا ترين ذلك ؟ »

نظرت له .. ثم لي .. رسالة بليغة جدا .. فقال لها :

- « هذا صديقي (رفعت) وأنا أثق به تماما .. صحيح أنه يبدو كفرشاة الأسنان العتيقة .. لكني أحترم ما سيقول .. »

غطت عينيها بكفيها إذ جلست على المنضدة ، وقالت بصوت كالفحيح :

- « كانوا عشرين أخفيناهم في قبو الكنيسة بعد ما حسبهم الروس قد ماتوا .. كنا نطعمهم ونعالجهم .. ولم يكن يعرف سر هذا القبو سوى القس و (نجروزو) وأبي و (سادوفسكو) وأنا .. »

كانت تعد على أصابعها حتى فرغت من خمس أصابع .. تأملتها وعادت تحكي قصتها :

- « هناك من أفشى السر .. لا أدري من .. لكنه

ليس أنا بالتأكيد ، ولا أبي ولا القس .. لأن الأخيرين أعدما رميا بالرصاص .. ربما كان الواشي من أهل القرية وربما كان أحد الرجلين (سادوفسكو) أو (نجروزو) .. المهم أن الدبابات السوفيتية أحاطت بالكنيسة ، وكان تصرف الروس باردا وهادئا إلى درجة تثير الذهول : جعلوا دبابة تقف على فتحة المدخل ليستحيل فتحه ، وتركوها هناك بضعة أيام .. كان طاقمها خلالها يعسكر في ساحة الكنيسة ويعيش حياة عادية جدا .. لكننا كنا نعرف الهول الذي يحدث تحت الأرض ونرتجف منه .. ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ »

سألها (جوستاف) وهو يشعل سيجاره الشهير :

- « وما سر حماسكم الشديد للنازيين ؟ »

- « ليس للنازيين .. بل للأطفال الذين وجدوا أنفسهم في هذا الجحيم .. لم يتحمل أبي فكرة موتهم . وكان يزمع أن يستطيع تهريبهم إلى (تشيكوسلوفاكيا) لا أدري كيف .. »

سألتها أنا بعد ما فهمت ما قالته ، وبعد ما حكت لنا التفاصيل كلها :

- « وما سر كلامك عن العدالة ؟ »

- « لقد ظل شبح هؤلاء النازيين يطاردنا ربع قرن كاملا .. كنا نشعر بالذنب وبأن دمهم على رءوسنا .. لهذا ارتجفنا هلعا حين سمعنا عن فصيلة نازية تجوب القرى ليلا .. إنهم يبحثون عنا .. لم يقتلونا لسبب واحد هو أنهم لم يرونا بعد .. لكن هذا سيحدث لا محالة ..

» لكن أى شك فى الأمر تبخر عندما فتحتم القبو لتجدوه خاويا .. لقد غادر الموتى قبورهم كى يفتكوا بنا .. ولا يثير دهشتى انتحار (نجروزو) فالفكرة مريعة .. مريعة إلى حد لا يمكن الحياة معه .. »

قلت لها و (جوستاف) يترجم :

- « سيدتى .. هل أنت واثقة من أن أحدا لم يستخرج جثثهم من القبو ؟ »

- « حتما لا .. إن شيئا كهذا لا يحدث سرا .. »

- « وأين (سادوفسكو) هذا الآن ؟ »

- « مات بذات الصدر بعد الحرب بثلاثة أعوام .. »

تبادلت النظرات مع (جوستاف) .. مشكلة من يعرفون أسرارا مهمة هى أنهم يموتون بسهولة غير عادية .. مات الرجل وسره معه ..

لم يكن هناك مزيد من الأسئلة فنهضنا وشكرناها كثيرا ، ونصحناها ألا تنتحر ..

* * *

وكانت عربة يجرها حصانان تعبر الشارع ، وقد تربع عليها عجوز كث الشارب - كالعادة - وجواره صبى يغنى ويؤرجح ساقيه المتدليتين فى الهواء إذ جلس جوار الحوذى ..

كانت العربة تجر سيارة (زابا روجيتس) كانت فاخرة يوما ما ، لكنها تحولت إلى قطعة من الحديد .. عجينة حديد إن صح تعبير كهذا .. ولما كنت أستبعد أن يوجد (سمكرى) سيارات مصرى فى (رومانيا) .. فإننى أدركت أن العربة قد انتهت تماما .. فقط (سمكرية) السيارات المصريين يستطيعون إعادة كتلة الحديد هذه إلى عربة ..

أطلق (جوستاف) شهقة ألم ، توحى بأنه كان يتمنى أن يرانى أو يرى زوجته فى مكان هذه السيارة الحبيبة .. تحسست ذراعه مشجعا ثم دنوت من كتلة الحديد التى وقفت إلى جانب الطريق ، وأدركت أن شباب الفصيلة السادسة لم يضيعوا وقتهم ليلة أمس ..

كان الحوذى الرومانى يفك حبله الغليظة ويتقاضى أجره . حين جثوت أنا على ركبتى ونظرت أسفل السيارة ..

ثم زحفت بثيابى - كالعادة - لأرقد تحتها وأعيد تفحص خرطوم البنزين إياه .. كان مثقوبا فى موضعين أو أكثر .. لكنه - كذلك - كان ملوثا بمادة لزجة أميل إلى الاخضرار .. (لولا ما فى ذلك من مجافاة للذوق لقلت إن هذه المادة شبيهة ببلغم المصابين ببكتريا الـ (مودوموناس) .. لكنى أعرف بالطبع أن هناك آنسات ها هنا .. لذا لن أقول هذا) !

وتذكرت بسهولة أين رأيت هذه المادة من قبل ..

كما تذكرت أننى أحمل عينة منها فى جيبى ..

* * *

١٢ - المقبـــرة ..

فى هذه المرة نتصرف كروايات (شيرلوك هولمز) .. ككل آخر عشر صفحات فى أية رواية لـ (شيرلوك هولمز) ، كنا كامنين ننتظر ومعنا الحكمدار (أيودو) .. وكان لدى الحكمدار و (جوستاف) أسئلة كثيرة لى لكنى - كما فى الروايات المذكورة - كنت ألتزم بصمت مستفز وأرفض التصريح بأى جديد ..

كانت الشمس قد غربت ..

وكنا على بعد مائة متر من بيت الأرملة . نقف بين الأشجار بانتظار اللحظة التى تبدأ التحرك فيها ..

أتحدث طبعا عن الأرملة (كاراجيالى) لا الأرملة الأخرى المقعدة ..

سألنى (جوستاف) وهو يحكم غلق المعطف على صدره ، فقد برد الهواء أكثر :

- « حسن .. أنت تشتبه فى الأرملة .. فماذا ننتظر ؟ »

- « صبرا يا (جوستاف) .. أعتقد أنها لن تنتظر أكثر .. »

* * *

بعد ساعتين انفتح الباب ، ولمحنا شبح المرأة بإشاربها المميز تخرج منه ، تلفتت حولها ثم راحت تجد السير مبتعدة ..

قال الحكمدار شيئا ما ، فقال (جوستاف) مترجما :

- « إنها تتجه إلى الغابة خارج القرية .. »

وبدأنا نمشى فى إثرها بذات سرعتها .. الحق أنها كانت - كما قال (جوستاف) - نشيطة جدا وقد أرهقتنا سرعتها ..

لكن ها نحن أولاء فى الغابة المظلمة نراها ، يساعدنا على هذا ضوء المصباح الذى تحمله حاسبة أن أحدا لا يراها ..

تميل يمينا ثم يسارا .. ثم تتقدم .. ثم تختفى وراء بعض الأشجار .. ثم تعود للظهور ..

أرجو أن تكون على علم بما تفعله ..

أخيرا رأيناها تتوقف فى مساحة خالية من الأشجار ، تنظر حولها ثم تضع المصباح على الأرض ..

لاهثا تساءل (جوستاف) :

- « ما هذا المكان يا مستر (هولمز) ؟ »

قلت وأنا أعب الهواء محاولا إدخال الغلاف الجوى فى رئتى :

- « الأمر واضح .. هذا هو المكان الذى دفنت فيه .. هف هف ! جثث الألمان بعد ما أخذتهم من القبو ! هف هف ! أعتقد أن هذا كان بمعونة (سادوفسكو) .. هف هف ! لا بد أنهما فعلا ذلك على مدى أيام .. »

- « هل تمزح ؟ ولماذا يفعلان ذلك ؟ »

- « هف هف ! طبعا كى يدفن الصبية دفنة لائقة بهم ، وحتى لا تظل صورتهم ميتين فى القبو تطاردهما .. هف هف ! إنه نوع من الاعتذار المهذب للصبية .. سندفنكم لكن - رحماكم - لا تدعوا أشباحكم تطاردنا ! »

لم يكن من السهل أن تسمع المرأة صوتنا ..

بالإضافة إلى بعد المسافة . كانت جالسة منهمكة فى عمل مهم : قراءة عبارات من كتاب غليظ لعله كتاب صلاة أو لعله كتاب سحر أسود .. لا أحد يدرى ، وكانت منهمكة جدا ..

منهمكة فى القراءة بصوت عال ..

حتى إنها لم تسمع صوت النشيد الألمانى القادم من بعيد ..

* * *

كان الحكمدار هو أول من رآهم قادمين ..

وصاح بأعلى صوته :



كانت جالسة منهمكة فى عمل مهم : قراءة عبارات من كتاب غليظ ، لعله كتاب صلاة أو لعله كتاب سحر أسود ..

- « (ماريانا كاراجيالى) ! »

وحتى أنا بضعف بصرى الشهير استطعت أن أرى صف الجنود يتحرك بخطوته العسكرية وراء صف الأشجار القريب من المرأة ..

هذه المرأة سيرونها .. سيعرفونها ..

كانت تنظر حيرى .. تنظر نحونا لتدرك مصدر الصوت ، وتنظر للوراء لتدرك مصدر النشيد ..

ثم نهضت .. وبدأت تركض نحونا .. وهى تصرخ ..

لكنها رأتنا .. وتعرفت وجوهنا .. فصرخت من جديد ، وانطلقت تركض مبتعدة .. فى اتجاه بعيد عنا وعنهم ..

صرخ (جوستاف) بالرومانية شيئا ما ليس عسيرا استنتاجه : تعالى هنا يا حمقاء ! نحن هنا لحمايتك !

لكنها كانت تمر بحالة الشلل العقلى التى تصيب المذعورين ، وتجعلهم يلقون بأنفسهم فى البحر - وهم لا يسبحون - هربا من كلب مسعور ..

راحت تركض بخفتها المعهودة مبتعدة لتذوب فى الظلام ..

ودوى صوت من يقول بألمانية عسكرية صارمة :

- « هالتن زى ! أختونج ! »

ومن وراء صف الأشجار رأيناهم يركضون متفرقين ..
صاح (جوستاف) وهو يركض كالملسوع :
ـ « بحق السماء ! يجب أن نجدها حالا .. »
ورحنا نركض بين الأشجار .. نتعثر فى أشياء سوداء لا ندرى ما هى فننهض متشبثين بأشياء أكثر سوادا .. إن (جوستاف) لا يضىء بالكشاف إلا لنفسه ..
كانت هناك حفرة عميقة نوعا ؛ هويت فيها لألتقى عشرات الأشواك والأغصان المدببة فى وجهى .. فلو كانت مخصصة لصيد الفيلة لما كانت أكثر أذى وخطورة ..
نهضت وأنا ألعن الظلام و (رومانيا) و (جوستاف) ، ونجحت فى أن أقف على قدمى .. حين .. حين .....
حين دوت صرخة المرأة .. صرختها الرهيبة المدوية ..
وعرفت منها أن الأوان قد فات .. لم يعد الركض ذا جدوى .. فلنترفق بهذا القلب المنهك ..
ولننتظر عودة (جوستاف) ومن معه ..

* * *

عادا بعد قليل يحملان جثتها ..
وضعاها على الأرض جوارى ، وجلسا وكلهما إحباط وإرهاق ..
تأملت الجثة على ضوء الكشاف .. فرأيت طعنة السونكى فى أسفل الصدر ..

لا صوت سوى اللهاث واصطكاك الأسنان ..
سألت (جوستاف) وأنا أمسح دمعة سالت على خدى :
ـ « هل رأيتماهم ؟ »
ـ « فقط وهم يبتعدون ماشين بخطوة الأوزة الشهيرة .. »
ـ « لم تلحقا بهم ؟ »
ـ « كانوا أسرع منا .. ثم ما جدوى هذا الآن ؟ »
وبعد دقائق همس :
ـ « إن الجثث فى قبورها لم تتحرك .. أليس كذلك ؟ »
ـ « الموتى لا يغادرون القبور يا (جوستاف) .. فقط لم يكن هؤلاء الجنود مدفونين فى قبو الكنيسة .. »
ـ « وكيف عرفت كل هذا ؟ »
ـ « لم أعرف شيئا .. فقط وجدت خرطوم سيارتك ملوثا بـ (الإكتوبلازم) فأدركت يقينا أن الأمر خارق للطبيعة .. إن رجال الفصيلة السادسة هم المسئولون عن تعطل سيارتك .. وتوقعت أن تهرع المرأة ليلا إلى حيث المكان الحقيقى لقبور الجنود كى تطمئن إلى أنهم لم يفارقوها ، وربما تصلى عليهم أو تؤدى طقوسا لتحرير الأرواح .. المهم أننى عرفت أنها لن تمضى الليل وحيدة فى دارها تنتظر .. »

« وكان هذا خطأها الفادح لأنها قابلتهم وحدها في ظلام الليل . وكان الباقي حتمياً .. »

تبادل (جوستاف) حديثاً سريعاً مع الحكمدار .. ثم قال لي :

- « الحكمدار يطلب أن نتعاون لنقل جثتها إلى القرية .. »

- « سنفعل .. وكذلك سيكون علينا أن نحضر الرجال غداً لحفر هذه القبور . ونقل الجثث إلى مقبرة محترمة بعد ما يصلون عليها .. من يدري ؟ في الغالب سيهدأ أفراد الفصيلة السادسة بعد هذا . وبعد موت (ماريانا) و (نجروزو) .. »

عاد يسألني .. وهو يشعل سيجاراً كاسحاً آخر :

- « وماذا عن الإصبع المبتور إياه ؟ »

- « كما قلنا : من السهل دائماً الحصول عليه .. ولربما تركه أحد أفراد الفصيلة على سبيل التذكار .. لكنه لم يكن يخصه بالتأكيد .. »

وقفنا صامتين نرمق الغابة المظلمة ..

ثلاثة أحياء وامرأة ميتة ..

لكن شيئاً واحداً كان يربط بيننا في هذه اللحظة ..

* * *

١٣ - فصيلة الأطفال ..

وشعر (هانس) بسحابة مظلمة تزحف على عينيه . فلم يعد يرى ..

أتراه الموت ؟ شعر برضا وسرور للفكرة .. لكن السحابة رحلت . وعاد يرى القبو المعتم وأجساد رفاقه ..

الحق أنه لم يعد يذكر من مات منهم ومن ما زال حياً ..

نادى بصوت مبحوح واهن :

- « (أوتو) .. (أوتو) .. ألم تمت بعد ؟ »

جاء صوت (أوتو) في الظلام مبحوحاً بدوره :

- « نعم .. لكني سأموت بعد قليل .. من يدري ؟ ربما أعود شبحاً وأنتقم من كل هؤلاء الذين خانونا .. سأمرح كثيراً .. جداً ...... »

وحاول أن يضحك .. لكن الألم صدره جعل ضحكته صرخة ألم ..

- « (هانس) .. هل أنت جائع ؟ هل تشعر بالظمأ ؟ »

- « لا .. لقد تلاشى كل شىء منذ .. منذ متى ؟ »
- « إذن أنت تموت يا رفيقى .. لقد انتهت قصتنا ! »

أصابه الذعر للحظة ثم ملأته الفكرة مرحًا .. وفى الظلام سأل (أوتو) :

- « هل تذكر ما كنت تغنيه فى تلك الليلة ؟ »
- « نعم ... »
- « فلنغنه معًا الآن .. »

وتعالى صوتهما الواهن الخالى من اللعاب فى ظلام القبو :

- « أبيض أبيض هو لون ثيابه .. أبيض هو كل ما لديه .. لهذا أحب اللون الأبيض لأن حبيبى .. يعمل خبازًا .. »

« أسود أسود هو لون ثيابه .. أسود هو لون ما لديه .. ولهذا أحب اللون الأسود .. لأن حبيبى ..... لأن حبيبى جندى فى الفصيلة السادسة ! »

* * *

خاتمة

سألت (جوستاف) ونحن نغادر القرية :

- « أ ... أرجو ألا أبدو غبيًا .. لكن ما اسم ذلك الفندق فى (نياموتزو) ؟ »
- « (لابوخنياتو) يا رفيق .. (لابوخنياتو) ! »

* * *

كان هذا كافيًا فيما يتعلق بـ (رومانيا) ..

إخوة دم وجانب نجوم و د. (لوسيفر) وفصيلة سادسة و (إكتوبلازم) و ... و ... يا للجحيم !

إننى أتركها راضيًا فقد أثرت كوابيسى .. وأثريت كوابيسها . وسيحمل كلانا للآخر أسوأ ذكرى ممكنة ..

العجوز الأصلع القادم من وادى النيل يعود لوطنه أخيرًا كى يبدأ حياة هادئة ..

لقد نال (جوستاف) الموضوع الصحفى الذى أراده . واكتسبت أنا خبرة لا بأس بها بظروف الاحتلال النازى لـ (مونداڤيا) ..

الآن أبدأ أول يوم فيما تبقى من حياتى .
لكن خطابا معينا كان ينتظرنى ..
وكان صاحب الخطاب يدعى (هارى شلدون) ..
يتحدث عن دمية معينة يسمونها دمية الـ(فتيش) ..
لكن هذه قصة أخرى ..

د.(رفعت إسماعيل)
القاهرة



رقم الإيداع ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ـ ☎ ٢٨٤٢٧٩٢ ـ ٢٨٣٥٥٥٤